حوار شامل مع البروفسور نورمان فنكلستين

خاص بـ الآداب

■ الإعلام، الانتفاضة، السلام، اللاساميّة ■

لم يعُدْ نورمان فنكلستين في حاجة إلى تعريف. فقد سبق أن قدَّمناه عام ١٩٩٨ في ملف كامل ومقابلة خاصة بـ الآداب. وعاد فخصّ مجلّتنا بدراسة معمّقة عن اتفاقيَّة واي ريفر في نهاية ذلك العام. ومنذ أربعة أشهر تقريباً ترجمتُ له، بمشاركة الصديق أيمن حنا حدّاد، كتابه ـ القنبلة: صناعة الهولوكوست ـ تأمُّلات في استغلال المعاناة اليهوديَّة، الصادر عن دار الآداب. وقد تُرجم هذا الكتاب، أو هو في طريقه إلى أن يُترجم، إلى إحدى عشرة لغة (منها الألمانيَّة والدانمركيَّة والفرنسيَّة والبولنديَّة واليابانيَّة والإسبانيَّة والتركيَّة)، وطُبع منه مؤخراً خمسون ألف نسخة بالألمانيَّة، وأثار حنق الصهاينة وحلفائهم في كلّ مكان نُشِر فيه تقريباً: فاتُّهم بمعاداة السامية (على رغم كونه يهودياً ومن أبويْن نَجَوا من غيتو وارسو ومن معسكرات الاعتقال النازيَّة، وأباد النازيُّون جميعَ أفراد عائلته من جهة والديْه)، واتُّهم بمساعدة الإرهاب الفلسطينيّ.

في هذا الحوار الشامل الذي خصّ به فنكلستين الآداب، يتحدَّث عن تلقّي الاعلام والرأي العامّ لكتابه، معرِّجاً على حدود «الديموقراطيَّة» الإعلاميَّة في الولايات المتحدة، ثم يُعطي رأيه الحادّ في روجيه غارودي، ويميِّز بين الانتفاضة الأولى و«الإحباط» الشعبيّ الثاني (٢٨ أيلول ٢٠٠٠ ـ ......)، ويَطْرح أسئلةً عميقة عن معنى اللاساميَّة والإجرام.

أجرى الحوار: أيمن حنا حداد

نقله إلى العربيَّة: سماح إدريس

كتابُكَ نُشر في المملكة المتحدة في منتصف حزيران (يونيو) ٢٠٠٠. ومنذ ذلك الوقت صدرتْ مقالاتٌ كثيرة عنه، ولكنْ لم تُنْشَرْ تقريباً أيُّ مراجعةٍ له في الولايات المتحدة. أيمكنك أن تعلّق على هذا؟ وهل تحدِّثنا عن كيفيَّة استقبال أوروبا والولايات المتحدة لكتابك؟

صدر كتابي في المملكة المتحدة وفي الولايات المتحدة في الوقت ذاته تقريباً. في المملكة المتحدة كانت ردودُ الفعل كبيرة. فقد نُشر على حلقات في **London Guardian**. وأُورِدَتْ مقتطفاتٌ كبيرة منه على امتداد عددَيْن، ومن ثمّ روجِعَ في كلِّ الجرائد الرئيسة، بل وفي الثانوية كذلك، وعلى مستوى المملكة والمقاطعات أيضاً، وأحياناً كانت المراجعةُ تأتي في صفحة أو صفحات كاملة. وقد ذهبتُ إلى المملكة المتحدة، في الأسبوع الأول من تموز (يوليو) على ما أظنّ، وأُجريتْ معي مقابلاتٌ في أكثر من عشرين محطة إذاعيَّة وتلفزيونيَّة تابعةٍ لـ «هيئة الإذاعة البريطانيَّة،» ناهيك بالمقابلات على صفحات الجرائد. وأستطيع القول إنَّ التغطية الصحفيَّة للكتاب هناك كانت انتقاديةً بشكلٍ طاغٍ، ولكنَّها لم تكن عدائيَّةً. والمثير للانتباه أنَّ أفضل تغطية للكتاب إلى هذا اليوم إنَّما جاءت من الجالية اليهوديَّة في المملكة المتحدة. فجريدة **London Jewish Chronicle**، وهي الجريدة اليهوديَّة الأولى في لندن، أجرتْ معي مقابلةً معقولةً جداً ولم تكن عدائيةً على الإطلاق. ثم نَشَرت الجريدةُ مراجعةً شديدةَ النقد لكتابي، بقلم پيتر نوڤِك، مؤلِّف كتاب **الهولوكوست في الحياة الأميركيَّة**، وهو كتاب كنتُ قد انتقدتُه بشدّة في **صناعة الهولوكوست**. فكان أن أجازتْ لي الجريدةُ حقَّ الردّ الكامل من دون أيّ رقابة على الإطلاق. وتحدثتُ بعد ذلك في كنيسٍ رئيسيٍّ في لندن، وعوملتُ باحترامٍ وشرفٍ بالغيْن. ومؤخّراً نشرتْ **The Jewish Quarterly**، وهي الدورية اليهوديَّة الرئيسيَّة في إنكلترا، مقالةً طويلةً عني في عدد تشرين الثاني/كانون الأول ٢٠٠٠ بعنوان «أفكار عن فنكلستين.» وأعتقد أنَّها كانت مقالةً محترمة بشكل عام. فلأقتبسْ مقطعاً منها يقول ما يلي:

«ربّما كان ردُّ فعلنا [على الكتاب] بتلك الشدّة لأنَّ فنكلستين أثار بعضَ القضايا الهامّة وغيرِ المريحة. ومع أنَّ أسلوبه وأداءه قد يكونان مُغيظيْن أحياناً فقد يجد القرّاءُ أنفسَهم يَجْفلون بعصبيَّة إزاء بعض المواضيع التي يتحدَّث عنها. وأحياناً قد يُصدَم المرءُ بقراءة أمورٍ لا يمكن قولُها في العادة. وهذه الأمور، إلى جانب أمثلة مذكورة، تَقْطع الأنفاسَ بدقّتها الغاضبة ولذعِها المرّ.»

وأضيف فقط أنَّه سبقتْ هذا المقطعَ الإشارةُ إلى أنّ نَشْرَ كتابي في الصيف الماضي «قد أَطْلَق سعاراً إعلاميّاً يذكّر بـ 'سجال غولدهاجن' قبل سنوات.» وباختصار كانت ردودُ الفعل في المملكة المتحدة من قياس ردُودِ الفعل على ذلك السجال الشهير: انتقاديةً بشكل طاغٍ، ولكنَّها غير عدائيَّة... مع استثناءٍ لافتٍ هو موقف الجالية اليهودية هناك، التي أعتقد أنَّها استقبلتْ كتابي بشكل جيِّد.

صَدَرَ الكتابُ، كما قلتُ، في المملكة المتحدة وفي الولايات المتحدة في الوقت ذاته تقريباً. ولكنْ في الولايات المتحدة لم يَظْهر أيُّ ردّ فعل على الإطلاق، مع أنَّ الدار التي نشرتْ كتابي صرفتْ أموالاً كبيرةً على إشهاره إعلامياً. فقد أرسلتْ حوالى ٢٥٠ نسخةً إلى الصحف، وطبعتْ لاصقاتٍ خاصّةً بالملفّات المرسلة عنه إلى الصحافة؛ وهذا استثمارٌ كبيرٌ بالنسبة إلى دار نشرٍ متواضعةِ الإمكانيّات كـ «ڤِرْسو.» ومع ذلك لم يكن ثمّة أيُّ ردِّ فعلٍ على الإطلاق. ولكنْ حوالى شهر آب (أغسطس) ٢٠٠٠، أيْ بعد شهر من قيام ردُود الفعل في المملكة المتحدة، بات مستحيلاً تقريباً تجاهُلُ الكتاب في الولايات المتحدة من دون أن يُتَّهَمَ [المتجاهِلُ] بممارسة الرقابة. ولذا بدأتْ ردُود الفعل تأتي على الكتاب بحلول ذلك الشهر. وكانت المبادِرةُ إلى ذلك جريدةَ **نيويورك تايمز**؛ فقد نشرتْ صفحةً كاملةً عن الكتاب في **ملحق الكتب** التابع لها والصادرِ يومَ الأحد. ومن عادتي أن أَردّ على الاتّهامات أو المزاعم الموجَّهةِ إلى ما أكتُب، ولكنَّ تلك الصفحة اقتصرتْ على هجماتٍ قَدْحية وشتّامةٍ. وقد كتبها عمر بارتوڤ، وهو قائدٌ سابقٌ في سلاح الدبابات الإسرائيليّ، فَعَرَضَتْ كلَّ الرهافة والفضيلة التي يتمتّع بها قائدُ سلاحِ دباباتٍ سابق!

المقالة التي رسمت الطريقَ لكل المقالات التي انتقدتْ كتابي كتبها قائدٌ سابق في سلاح الدبابات الإسرائيليّ

ولكي أعطي جملاً نموذجيةً من تلك المقالة تُظْهِر نَكْهتَها، خُذ المقطعَ التالي: «هناك أمرٌ محزنٌ في ذلك الانحراف بالذكاء وذلك الإفساد للغضب الأخلاقيّ. وهناك شيء غيرُ أمين أيضاً، شيء صبيانيّ، ويدّعي الاستقامة، ومغرورٌ، وأحمق!» وقريب من نهاية المقالة نقرأ: «على أنَّ هذا الكتاب، شأنه شأن أيّ نظريّة من نظريّات المؤامرة، يحتوي بضع ذرّات من الحقيقة، وهو ـ شأنه شأن أيّ نظرية من تلك النظريات ـ لاعقلانيّ وخدّاع.»

هذه المقالة رَسَمَتْ بشكلٍ أساسيٍّ الطريقَ لكلّ المقالات التي تبعتْها. إذ على المرء، أولاً، أن لا يَغْفل عن وظيفة **ملحق التايمز** الأساسيّة. فهذا **الملحق** الأسبوعيّ يحتلّ في الحياة الثقافيّة الأميركيّة مكاناً لا يتوفّر مثلُه لغيره في بقية أرجاء العالم الصناعيّ. وثمّة هدفان أساسيّان لـ **الملحق** المذكور. **الأول** أنّه يشير على مسؤولي المكتبات الأميركيّة بالكتب التي يَحْسن أن يَطْلبوها لمكتباتهم؛ فمسؤولُ المكتبة عادةً ينتظر صدورَ هذا **الملحق** يومَ الأحد، فيبحث عن الكتب التي تمّت مراجعتُها، وهذه هي الكتب التي تُطلَبُ لتُضمَّ إلى المكتبة. وحين نَشرَ **الملحق** مقالةَ بارتوف نَقَلَ [إلى مسؤولي المكتبات] رسالةً مفادها: «لا تطلبوا هذا الكتابَ، وإنْ فعلتم فذلك لأنّكم معادون للساميّة.» وفي أماكن أخرى ثمّة مقارنة لكتابي بـ **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهو الكتاب السيِّئ السمعة المعادي للساميّة. وفي هذا المجال يُخيَّل إليّ أنّهم نجحوا في مسعاهم [الإقصائي]. وبدافع الفضول بحثتُ عن كتابي في قسم الكتب اليهوديّة في «جامعة نيويورك العامّة،» وأعتقد أنّ ذلك القسم يحوي حوالى ٤٠٠ ألف مجلّد؛ إنّه قسم مذهل. ولكنّي لم أجد ذِكْراً لكتابي في قائمة الموجودات على الكومبيوتر، ولم يكن أيضاً من بين الكتب المطلوبة. ثم تحدثتُ إلى صديقةٍ لي في كلية جامعة يال للقانون، فبحثتْ في مكتبة ستيرلنغ ـ وهي من كبريات المكتبات في العالم ـ فقالتْ إنّ هذه المكتبة لا تتوفر على الكتاب هي الأُخرى. وهكذا أعتقد أنّ **ملحق التايمز** نجح كثيراً في هدفه الأول، ألا وهو منعُ طلبِ الكتاب، وذلك ببثّ رسالةٍ فحواها أنّه معادٍ للساميّة.

الهدف الرئيسيّ **الثاني** لـ **ملحق التايمز** هو الإيعاز إلى الجرائد الأقلّ انتشاراً، وإلى برامج الإذاعة والتلفزيون المتخصِّصة، بالكتب التي تَجْدر مراجعتُها وبالمؤلِّفين الذين تَجْدر استضافتُهم. وفي هذا المجال نجح **الملحق** أيضاً. ففي حدّ علمي ليست هناك جرائدُ من الفئة الأقل انتشاراً قامت بمراجعة كتابي (كجرائد ميامي وشيكاغو وإلى ما هنالك). والعادة أنّه إذا قام **ملحق التايمز** بمراجعة الكتاب في صفحة كاملة فذلك سيُحْدث أثراً مدهِشاً في الجرائد الأقلّ انتشاراً وفي جرائد الولايات الأميركيّة المتعدِّدة. ولكنْ في حال كتابي كان الأثرُ معدوماً!

وأما في الأماكن القليلة التي جازفتْ بإجراء مقابلةٍ معي، كما هو حال بعض البرامج الإذاعيّة والإخباريّة التي كانت قد خططتْ لمقابلتي، فقد قامت كلّها بإلغاء المقابلة في اللّحظة الأخيرة، باستثناء برنامج إذاعيّ صغير في واشنطن («پابليك انترِسْت»). وما حدث بالغُ الوضوح بالنسبة إليَّ: فقد خطَّطَ المُعِدُّون لمقابلتي بناءً على ما سمعوه من ردُود الفعل على كتابي في المملكة المتحدة؛ ومع دنوّ موعد المقابلة بدأوا يستخدمون الانترنت [للحصول على المعلومات]. فماذا فعلوا؟ بحثوا عن **ملحق نيويورك تايمز**، فوجدوا مقالةَ [بارتوف]، التي تقول إنّ الكتاب معادٍ للسامية ومتعصِّبٌ إيديولوجياً وأحمقُ وصبيانيٌّ، فألغوا المقابلة! حقاً لقد حظيتُ بمقابلة إذاعيّة مع المحطة الراديكاليّة «پاسيفيكا،» وببضع مراجعات في صحف أقل انتشاراً، مثل **بوسطن غلوب** و**واشنطن پوست** و**لوس أنجلس تايمز**. ولكنْ باستثناء هذه الأخيرة كان ثمة إجماعٌ على أنّه «كتاب مُريع،» بحسب تعبير الجريدة الثانية.

ولعلّي أضيف، على سبيل المقارنة، أنَّ الكتاب تُرجِم أو يُترجَمُ إلى ١١ لغةً، منها: الفرنسية والألمانية والإسبانية والبولندية والدانماركية والسويدية والتركية والعربية والبرتغالية واليابانية وأخرى لم أعد أَذْكرها. والحقّ أنّني نلتُ في البرازيل اهتماماً أعلى من الاهتمام التي نلتُه في الولايات المتحدة. فقد أجرى التلفزيون البرازيليّ معي مقابلةً هناك، وكنتُ الموضوعَ الرئيسَ في مجلة برازيليّة توازي [في سعة انتشارها] مجلةَ **ڤانيتي فير** الأميركيّة.

ولماذا ذلك الاهتمامُ الكبيرُ بكَ في البرازيل؟

هناك جالية يهوديَّة في البرازيل. ذلك هو السبب بشكل أساسيّ. ولكنْ دعني أيضاً أُضِفْ أنَّ الكتاب سيَصْدر في ألمانيا في الأسبوع الأول من شباط.* وسيبثّ التلفزيونُ الألمانيّ برنامجاً وثائقياً مخصَّصاً بأكمله للكتاب، وذلك في ٥ شباط (فبراير). وسيُجري التلفزيون البرازيليّ برنامجاً آخر مدتُه نصفُ ساعة عن الكتاب. وهيئة الإذاعة البريطانيَّة BBC ستبثُّ برنامجاً هي أيضاً، يخصَّص قسمٌ منه للحديث عنه، وذلك في ٢٧ كانون الثاني.** المقابلات والاهتمام في كل مكان، إلاَّ هنا!

هناك بلدانٌ معنيَّةٌ مباشرةً بكتابك، ولاسيّما سويسرا. والفصل الثالث والأكبر منه هو بعنوان: «الابتزاز [أو نفضُ الجيوب] المزدوِج» ويعالج ابتزازَ صناعة الهولوكوست للمصارف السويسريَّة. فكيف كان ردّ الفعل في سويسرا وألمانيا؟

الاهتمامُ بالكتاب كبيرٌ فيهما لعلاقتهما بمسألة ابتزاز صناعة الهولوكوست أموالَ التعويضات [للناجين من المحرقة اليهوديَّة]. وعليّ أن أقول إنَّ ردُود الفعل هناك كانت حذرةً. فالسويسريُّون عانوا سنواتٍ عدّة أثناء سعي صناعة الهولوكوست إلى انتزاع تلك الأموال، وهم يريدون اليوم أن يطووا الصفحةَ ويضعوا الموضوع بأكمله خلف ظهرهم بعد أن دَفَعوا الأموالَ. وفي ألمانيا الوضعُ شبيهٌ بذلك في نواحٍ عدّة. ولكنْ على الرُّغم من حذر الناس في البلديْن فإنَّ الاهتمام بالكتاب مازال كبيراً.

ولكنْ هل انتهتْ القصّة؟ لقد ظنّ الألمانُ أنَّ الأمر انتهى بعد أن دفعوا مبالغ ضخمة من أموال التعويضات. أتظنّ أنَّ ثمّة المزيد من حلقات الابتزاز القادمة؟

من الصعب التنبُّؤ بذلك. إنَّ ابتزاز أوروبا ذلك الابتزازَ الناجحَ قد اعتمد على عدّة عوامل، لا على نجاح صناعة الهولوكوست في عملها وحده. فلقد عملتْ هذه الصناعةُ يداً بيد مع إدارة كلينتون. وكانت هناك علاقةٌ متبادلةٌ بين الحزب الديموقراطيّ وأناسٍ أمثال ستيوارت آيزنستات وكيلِ وزارة المالية، وإدغار بونفمان رئيسِ المؤتمر اليهوديّ العالميّ. وليس من الواضح الآن ما سيحدث مع إدارة بوش الجديدة، وما إذا كانت ستتواطأ مع صناعة الهولوكوست في ابتزاز سويسرا وألمانيا وغيرِهما. لا أعلم ما إذا كانت صناعةُ الهولوكوست ستنجح في مسعاها في المستقبل، لأنَّ الأسلحة الرئيسة في ابتزاز أوروبا كانت القضاءَ والتهديدَ الأميركيَّ بفرض العقوبات الاقتصاديَّة [على البلدان التي تعارض دفعَ التعويضات للناجين من الهولوكوست]. وفي الحاليْن ثمّة ضرورةٌ لتعاون الحكومة الفدراليَّة الأميركيَّة مع تلك الصناعة. وعليّ أن أقولُ أيضاً إنَّني أعتقد أنَّ هذه الصناعة قد بدأتْ تستشعر الخطرَ. إنَّ كتابي قد سبَّب لهم الأذى، ولا أشكّ في ذلك على الإطلاق. قد لا تكون لكتابي أيَّةُ تغطية هنا في أميركا، ولكنّ الوضعَ في أوروبا مختلف. وسيكون صعباً جداً أن تنجح صناعةُ الهولوكوست مجدَّداً.

لقد سبّب كتابي لهم الأذى، وسيكون صعباً جداً أن تنجح صناعة الهولوكوست مجدّداً

يتملَّكُني الفضول في أن أعرف ماذا ربحتْ حكومةُ الولايات المتحدة الفدراليَّة من ذلك كلّه؟ لا أفهم كيف تكون هذه الحكومةُ على استعداد للمخاطرة بعلاقاتها مع أوروبا من أجل الأصوات اليهوديَّة. فأنا أرى أنَّ الحكومة ستنال هذه الأصوات في كل حال، على الأقلّ في حال الحزب الديموقراطيّ. لماذا وَضَعَ أشخاص، أمثالُ حاكم ولاية نيويورك پاتاكي ورئيسِ بلديّة مدينة نيويورك رودولف غولياني، ثِقَلَهم خلف القيِّمين على صناعة الهولوكوست؟

هذا لغز لم يُجَبْ عنه بدقّة. لقد سُئل هذا السؤال راوول هيلبرغ، وهو الكاتبُ الثقةُ الأولُ في العالم في موضوع الهولوكوست النازيّة، فأجاب أنَّ الولايات المتحدة في أعقاب الحرب الباردة لم تَعُدْ تحتاج إلى حلفائها. إنَّها، ببساطة، لا تحتاج إلى سويسرا مثلاً. ما تريده حكومةُ الولاياتُ المتحدة هو أن تَحْصل على تبرُّعات مالية من الجالية اليهوديَّة، وهي تبرُّعات تقدَّر بـ ٦٠٪ من مجمل التبرُّعات في حملة الحزب الديموقراطيّ الانتخابيَّة. وهذا شيءٌ هامٌّ جداً، لا حقيقةٌ تافهة. إنَّ الانتخابات في الولايات المتحدة تُربَحُ أو تُخْسَرُ بناءً على اقتصاديَّاتها. ولمّا كانت أهميَّةُ سويسرا قد تناقصتْ بعد الحرب الباردة فقد أملَ [الطرفان الأميركيَّان الجمهوريّ والديموقراطيّ المتنافسان] الحصولَ على تبرُّعات ضخمة لحملتهما إنْ هما دَعَما صناعةَ الهولوكوست.

* ـ بعيْد إجراء هذه المقابلة، صدر الكتاب في ألمانيا عن دار نشر Verlag وطُبع منه خمسون ألف نسخة (على ما أوردتْ جريدة **هيرالد تريبيون** في ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١). (المترجم)

** ـ أجري هذا الحوار قبل المقابلات المفترضة المذكورة. (م)

ألم يكن الحزبُ الديموقراطيُّ ليفوزَ بأصوات اليهود وتبرُّعاتهم من دون طرح مسألة دفع التعويضات إلى الناجين من الهولوكوست؟

لستُ متيقِّناً من ذلك. هناك جمهورٌ ناخبٌ متنامٍ في الحزب الجمهوريّ، إذ إنَّ ٢٠٪ من الأصوات اليهوديَّة الناخبة تذهب اليوم إلى الجمهوريِّين. وتستطيع أن ترى أَثَرَ هذه الأصوات على صعيد نيويورك وحدها: فأناس أمثال آلان هيڤيسي مراقبِ حساباتِ مدينة نيويورك، وكارل ماككال مراقبِ حسابات ولاية نيويورك، يحتاجون إلى أموال اليهود. وتلك هي الوسيلة للحصول عليها؛ وهناك الكثير من المال هنا. يجب ألاّ يُنكِرَ أحدٌ هذه الحقيقة.

كيف كانت مبيعاتُ كتابك؟

بيع من الكتاب في المملكة المتحدة ٨٥٠٠ نسخة، وفي الولايات المتحدة ١٧،٠٠٠ نسخة. ولكنْ في العادة، تكون نسبةُ بيع أيّ كتاب آخر في الولايات المتحدة إلى المملكة المتحدة خمسةً إلى واحد، في حين أنَّ النسبة في حال كتابي هي اثنان إلى واحد بسبب الهجوم الذي شنّه الإعلامُ عليه.

كيف ترى أنّ كتابك غيَّر مجرى الأحداث بالنسبة إلى العاملين في هذه الصناعة، وفي الواقع المعيش؟

أستطيع القول إنّ الكتاب فَعَلَ أمريْن. **الأول** أنّه شرَّع التعبيرَ العلنيّ عن هواجس معيَّنة كانت إلى ما قبل صدور الكتاب لا يعبَّرُ عنها إلاّ في جلسات خاصة. فمثلاً كان هناك كثيرون ينتقدون إيلي ڤيزل في ما بينهم، بيْد أنّ شيئاً من هذا النقد لم يَظْهر علناً لأنَّ ڤيزل اعتُبر «أيقونةً» ثقافيَّةً في الولايات المتحدة. ولكنْ بعد أن صدر كتابي حدثَتْ بضعُ شقوقٍ في ذلك الجدار الصلّد. فقد كُتبتْ مراجعةٌ مضحكة جداً وشديدةُ الانتقاد عن مذكّرات ڤيزل في جزئها الثاني، وقد قام بهذه المراجعة حاخامٌ في إنكلترا، وإخال أنّها ما كانت ستَظْهر قبل صدور كتابي. والأمر **الثاني** الذي أظنّ أنّ كتابي قد فعله هو أنّه أَجْبر صناعةَ الهولوكوست على التصرُّف بطريقةٍ أكثرَ حذراً واحتراساً بصدد أموال التعويضات. فمثلاً، بخصوص مسألة توزيع الأموال السويسريَّة [على النّاجين من الهولوكوست] عمدتْ صناعةُ الهولوكوست إلى إصدار تقريرٍ من حوالى ٦٠٠ ــ ٧٠٠ صفحة؛ فإذا قرأتَ التفاصيلَ الصغيرة ستَفْهم كيف نَهَبت المنظماتُ اليهوديَّةُ ٩٠٪ من الأموال وكيف لم يتلقَّ الناجون إلاَّ فتاتَ الفتات. ولهذا أعتقد أنَّ القائمين على صناعة الهولوكوست باتوا أكثرَ حذراً الآن، وأكثرَ احتراساً في إظهارهم للأمور، ولكنَّهم مازالوا في واقع الأمر يتلقَّوْن المالَ كُلَّه تقريباً.

أَوَتقول إنَّهم غيَّروا تكتيكاتِهم وخطابَهم؟

نعم، لقد غيَّروا تكتيكاتِهم وغيَّروا خطابَهم. قد يواجِهون بعضَ المشكلات إنْ هم اتَّبعوا الطريقَ نفسَه، ولاسيَّما لأنَّ بوش هو الرئيس الآن وخَرَج آيزنْستات (ممثِّلُ الهولوكوست الرئيسيّ) من منصبه. ولكنّ عليّ أن أضيف إلى جوابي عن سؤالكَ السابق أنّه منذ صدور كتابي قام عددٌ من الدوريّات اليهوديَّة ذات التأثير بدعم دعاويَّ بالرُّغم من هجومها الشخصيّ عليّ. وما هو أشدُّ لفتاً للنظر أنَّ **كومنتري ماغازين**، وهي اليومَ الدوريَّةُ اليهوديَّةُ الأكثرُ تأثيراً في الولايات المتحدة، دعمتْ كتابي. ففي أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠ كتب رئيسُ تحريرها مقالةً رئيسيَّةً بعنوان: «تعويضات الهولوكوست: فضيحةٌ متنامية»، وفيها يؤكِّدُ عمليّاً كلَّ الاتّهامات التي وُجِّهتْ إلى صناعة الهولوكوست بصدد أموال التعويضات السويسريَّة. وبعد ذلك التاريخ كتب مؤرِّخٌ يهوديٌّ بارزٌ بعضَ الشيء مراجعةً طويلةً لكتابي في مجلةٍ تدعى **الأشياء الأولى**. وهي ليستْ مجلةً يهوديَّةً، ولكنَّها مجلةٌ مؤثِّرَةٌ. وجاء فيها ما يلي:

«إنَّ معظم المراجعات المعادية لكتاب **صناعة الهولوكوست** تجنَّبتْ بشكلٍ لافتٍ وجاهدٍ التعليقَ مباشرةً على الاتّهامات التي يَسُوقها فنكلستين ضدّ المؤتمر اليهوديّ العالميّ. والسبب المفترض هو أنّه ليس ثمّة من جوابٍ كافٍ. ففنكلستين يَتّهم المؤتمرَ اليهوديّ العالميّ بأنّه في واقع الأمر سفينةٌ من القراصنة تُبْحِر بحثاً عن الغنائم، وتَسْتخدم صدقيةَ الهولوكوست الأخلاقيةَ الفريدةَ من أجل ابتزاز الثروات من الحكومات الأوروبيَّة. ويَظْهر أنَّ الدعوى التي رفعها فنكلستين غيرُ قابلةٍ للدَّحْض، ويستحقّ تقديراً كبيراً لجسارته في كشفِ ما يبدو أنّه فضيحةٌ ذاتُ أبعادٍ هائلة.»

وهكذا فإنَّ عدداً من الدوريات قد تعاطَفَ مع الاتّهامات التي وجَّهتُها إلى صناعة الهولوكوست. وأُضيف أنَّ المصْدر الحيّ الأعظم لتأريخ الهولوكوست النازيّة، وأَقْصد راوول هيلبرغ، ذَكَرَ تكراراً أنَّ ما فعلتْه الحركةُ اليهوديَّةُ الأميركيَّةُ للسويسريِّين إنَّما هو ابتزاز وانتزاع. ومؤخَّراً وصلتني رسالةٌ من الأستاذ هيلبرغ، فعجبتُ لطبيعة لغته المُلْهِبة. فأنا إنسانٌ يساريٌّ، وحين أَتَّهِمُ أحداً بأنَّه يبتزُّ الأموالَ وينتزعها [بالتهديد] فإنَّ المرء يستطيع أن يَنْبذ لغتي بعدِّه إيَّاها لغةَ يساريٍّ مُسْرِفةً في تطرُّفها. ولكنَّ الأستاذ هيلبرغ جمهوريٌّ محافظ، ولهذا عجبتُ لاستخدامه لغةً هي ـ بصراحة ـ أكثرُ إلهاباً من لغتي أنا. ففي حين أستخدم كلماتٍ مثل: «shakedown» (نَفْض الجيوب) التي تتضمَّنُ دلالاتٍ هازلةً، يَسْتخدم هو لغةً قانونيَّةً فيقول إنّ ما تفعله صناعة الهولوكوست هو «blackmail» (ابتزاز) و«extortion» (انتزاعٌ [عبر التهديد]) وإلى ما هنالك. وقد اطَّلَعَ على كل الشهادات التي قُدِّمتْ أمام الكونغرس الأميركيّ بخصوص المصارفِ السويسريَّة والتعويضاتِ المطالَبَةِ بأن تَدْفعها هذه المصارفُ للناجين، فلم يجدْ ما يَخْلص إليه غيرَ اتِّهامِ القائمين بصناعة الهولوكوست بأنَّهم مبتزُّون. قبل صدور كتابي كان ذلك موضوعاً بالغَ التقديس. فقد كانت المسألة هي وجود ضحايا هولوكوست محرومين، في مواجهة أصحاب مصارف سويسريِّين سِمَانٍ (جَشِعين) وصناعيِّين ألمان نازيِّين. ولم يكن يُمكن وإنْ مجرد النُّطق بتأييد أصحاب المصارف السويسريَّة والصناعيِّين النازيِّين الألمان. وعليَّ أن أقول إنَّ هذا الإحجام كان ينطبق على اليساريِّين أيضاً. ولم يتَّضحْ لأيٍّ كان أنَّ ذلك قد يكون خديعةً، أو خطةً ابتزازيَّةً هولوكوستيَّةً. وفور أن كشفتُها ظهر قدرٌ ما من الصدمة الخالصة من جهة، ولكنْ ظهر من جهة ثانية استعدادٌ لنقاش هذا الموضوع علناً. وراح النَّاسُ يَظهرون أكثر عدائيةً في إداناتهم لصناعة الهولوكوست.

أكنتَ أنتَ أوَّل مَنْ كَشَفَ هذه الخديعة؟

لقد سبقني هيلبرغ في توجيه الاتّهام، ولكنَّه لم يوثِّقْه فعلاً قطّ. لم أكن أعي أنَّ باستطاعته أن يوثِّقه. ولكنِّي بعد أن قرأتُ رسالته أُدركُ أنَّه ما كان عليّ أن أشكّ في قدراته لأنَّه مؤرِّخ بالغُ التدقيق. كان عليَّ أن أُدرِك أنَّه لا بدّ أن يكون قد قرأ السجلَّ بأكمله قبل أن يُطْلِقَ اتهاماتِه [ضدّ صناعة الهولوكوست]. ولكنِّي كنتُ أولَ مَنْ وضع هذه الاتِّهامات في شكلٍ كتابيٍّ مطبوع. كنتُ مُطْلِقُ الصفّارة، الذي وثَّق الأمورَ أيضاً.

صناعة الهولوكوست ضخّمتْ أعداد الناجين لانتزاع تعويضات هائلة، فاضطرّت إلى التقليل من حجم القتلى الفعليِّين

في أعقاب صدور الكتاب هاجمتْ معظمُ المراجعات أسلوبكَ في الكتابة. فلماذا اختارتْ أن تركِّز على أسلوبك؟

الجواب واضح إلى حدٍّ كبير. فالمرء يركِّز على الأسلوب أو الشكل، أساساً، من أجل تجنُّبِ المضمون. ولأُلاحظْ في هذا المجال أنَّ البروفسور هيلبرغ هو أكثر الكتّاب المعنيِّين بالهولوكوست النازيَّة جفافاً أسلوبيّاً وبرودةً. وهذا عكسُ ما أنا عليه. فأسلوبُه ألمانيٌّ جداً، ولا منمَّقات بيانيَّة فيه. ولو كان ثمَّة مَنْ سينزعج من الأسلوب الذي كتبتُ به فسيكون هيلبرغ بالذات، لأنَّه يمتلك أكثرَ معايير البحث العلميّ تقليديَّةً. ومع ذلك أُجريتْ معه عدَّةُ مقابلاتٍ عن كتابي، ولم يتحدَّث في أيٍّ منها عن أسلوبي. بمقدورك أن تحبّ لغتي أو تكرَه لغتي؛ ذلك أمرٌ طبيعيٌّ جداً. ولكنْ أن تجعل منها موضوعَ المقالة بأكملها فذلك تجنُّبٌ ومراوغة.

ذكرتَ في القسم الأخير من كتابك أنّ صناعة الهولوكوست أدّتْ إلى خلق نوع جديد من معاداة الساميَّة في أوروبا. أفي وسعك تفصيلُ ذلك؟

كثير من الاتِّهامات التي رمتْ بها صناعةُ الهولوكوست السويسريِّين والألمانَ والبولنديِّين باطلٌ تماماً. وقد سمّى الناسُ هذه الاتِّهامات ابتزازاً صُراحاً، كلّما راحوا يتداولونها في ما بينهم. فمثلاً أثناء المفاوضات مع الألمان زارني عضوٌ قياديّ من الوفد الألمانيّ، وهو ذو مواصفات تَشْهد على يساريَّته المعصومة، كما أنَّ التزامه باليهود وتضامنَه معهم لا يباريَان. وأثناء حديثنا دافع بعنفٍ عن أعمال صناعة الهولوكوست، فأنكرتُ بعنفٍ مساوٍ ما تفعله هذه الصناعة. بدأ نقاشُنا الساعةَ الثانية من بعد الظهر، وكان مقرَّراً أن يَرْحل في الساعة الخامسة، ولكنْ بدلاً من أن يغادر التفت إليّ وقال: «أريد أن أكون صادقاً معك. نحنُ إلى جانبك. كلُّنا نعتقد أنَّنا نَخْضع للابتزاز.» قلتُ له: «أَتَعْلم لِمَ تَظنُّون أنَّكم تُبْتَزُّون؟ لأنَّكم تُبْتَزُّون حقاً.»

لقد ذكرتُ هذه الواقعة لصديقةٍ لي، وهي مؤرِّخة ألمانيّة، فردّت بالقول: «إذا كان هو يسمِّي ذلك ابتزازاً، أبإمكانك أن تتصوَّر ما يسمِّيه كلُّ الآخرين؟» إذن لا تظنَّ أنَّ الأوروبيِّين من الغباء بحيث لا يعلمون ما يجري!

هناك بعدٌ آخر للمسألة. وهو أنَّ القائمين على صناعة الهولوكوست كان عليهم من أجل اختلاق اتهاماتهم أن يزوِّروا التاريخ. وبعد أن زوّروا التاريخَ بذلك الشكل العبثيّ تحوّلوا اليوم إلى المُنْكِرين الأساسيِّين للهولوكوست: فهم بتضخيمهم أعدادَ **الناجين** من المحرقة لكي يبرِّروا انتزاعَ تعويضاتٍ هائلة لا يُمْكن إلاَّ أن يقلِّلوا من حجم **القتلى** الفعليِّين، ليتحوّلوا بذلك إلى مُنكري وقوع الهولوكوست [بتلك الأبعاد الهائلة التي تُعرَفُ بها]. والشيء الآخر هو أنَّ المعادين للساميّة يحبُّون صناعة الهولوكوست. إنَّها علاقة تكامليّة: فبإمكان المعادين للسامية أن يشيروا بجذلٍ إلى اليهود الكذّابين الذين يتاجرون بأمواتهم. إنّ ما تقوم به صناعة الهولوكوست هو بالنسبة إلى أولئك المعادين للسامية منٌّ وسلوى. وحين يَسْخر واحدٌ مثل دايڤيد إيرڤين فيقول إنَّ ثمّة ناجياً من معسكر أوشڤيتز يولَد كلَّ يوم، فإنَّ بإمكانه أن يقول ذلك الآن، وهذا ما تقوله صناعةُ الهولوكوست نفسُها. إنَّ عدد الناجين «يرتفع» يوماً بعد يوم! وهكذا نرى أنَّ كلا الطرفين يحتاج إلى الآخر ويحبّه: صناعة الهولوكوست تحب المُنْكِرين؛ ومُنكرو الهولوكوست يحتاجون إلى صناعة الهولوكوست لأنَّها تتيح لهم أن يَفْضحوا لامعقوليّتها من أجل تبرير دعواهم القائلةِ بأنَّ المحرقة كانت محض كذبة.

أحد الجوانب التي تُذهلني هو ردّ فعل صناعة الهولوكوست على افتضاح أمر بعض «المذكّرات» الأدبيَّة التي يَزْعم أصحابُها أنَّهم كانوا من ضحايا الهولوكوست. خذْ مثلاً حالتَيْ ويلكومرسكي وكوسينسكي. فصناعة الهولوكوست دافعتْ عنهما حتى بعد افتضاح أمرهما. إنَّ هذا، في رأيي، فضيحة ثقافيَّة في هذه الصناعة وفي الإعلام التقليديّ السائد. ومع ذلك، ولدهشتي، لم يعلّق أحدٌ على هذا الموضوع، بل ذهب كلُّ الاهتمام إلى مسألة التعويضات. لماذا؟

إنَّ قضيَّة الابتزاز الماليّ هي، في عدّة أمور، جانبٌ مستقلٌّ منفصل من مجمل عمل صناعة الهولوكوست. بل بإمكانك أن تَفْضح هذا الجانب من دون أن تَلْمس لبَّ صناعة الهولوكوست. غير أنَّ ما فعله أناسٌ مثل جيرزي كوسينسكي وبنيامين ويلكومرسكي هو أنَّهما بلغا حقاً لبَّ هذه الصناعة. لقد كانت مسألةُ التعويضات جديدةً نسبياً وخصَّت أناساً لم ينخرطوا فعلاً بصناعة الهولوكوست يوماً، أمثال إدغار برونفمان وستانيبرغ والحاخام سينغر، الذين - بصراحة - شمّوا رائحةَ صفقةٍ عظيمةٍ لابتزاز المال فعيَّنوا أنفسَهم قادةً لليهود. إنَّ ما حدث خليطٌ من عمل المافيا ومونت كارلو: إنَّه خدعة لكسب المال. عليك أن تتذكَّر أنّ ويلكومرسكي وكوسينسكي قد صودق عليهما من قِبل كلّ الشخصيات الرئيسة في صناعة الهولوكوست، فربحا كلَّ الجوائز الأدبيَّة، ونال كتاباهُما [**شظايا**، و**العصفور المدهون**] مراجعاتٍ متوهِّجةً، وراحا يَجْمعان التبرُّعات لمتحف الهولوكوست، وكانا متحدثيْن نجميْن في كلّ المؤتمرات.

ثمّة معلومتان جانبيَّتان لافتتان تُضافان إلى ما ذكرناهُ للتوّ. المعلومةُ **الأولى**: هي أنَّه حتى حين يُفتضح أمرُ أناسٍ أمثال ويلكومرسكي فإنَّ أحداً لم يُردْ أن يسمِّيهم دجّالين أو محتالين، بل جرى تحويلُهم إلى موضوعِ شفقةٍ من أجل حرف الانتباه عن إمكانية وجود محتالين في هذه القضية. المحامون البريطانيُّون الذين فحَصوا كتابي من أجل اتِّهامه بالقذف والتشهير ساءهم كثيراً أن أدعو ويلكومرسكي دجّالاً! المعلومة **الثانية**: لقد كان أكثر ما في ردود الفعل على كتابي إثارةً هو أنَّ أيّاً منها لم يَذْكر حملاتي على إيلي ڤيزل، رغم أنَّ القسم الأعظم من كتابي يهاجمه؛ بل إنَّ ناشري نفسَه أخبرني أنّ عليّ أن أحذف بعض عبارات الهجوم على ڤيزل.

هل بإمكانك أن تحدِّث الجمهورَ العربيّ عن إيلي ڤيزل؟

ڤيزل لا أهميَّة له. ولكنَّ ما يجعله شخصاً لافتاً للانتباه هو كونُه تجسيداً لما آلَتْ إليه الهولوكوست [كإيديولوجيا] في الولايات المتحدة، وذلك من حيث: دفاعُه غيرُ المشروط عن إسرائيل وعن اليهود، واعتبارُه كلَّ الأغيار أشراراً وكلَّ اليهود أخياراً. إنَّه تجسيدٌ للهولوكوست إيديولوجيةً ومصدرَ رزق. إنَّه

مسرح، أو مديرُ حلبةٍ في سيرك. إنَّه الهولوكوست، في كل بعدٍ من أبعاده، إيديولوجياً ومؤسساتياً. إنَّه صورة كاريكاتوريَّةٌ للهولوكوست.

عليَّ أن أعطي القارئَ العربيَّ صورةً ما عن هذا الرجل. إنَّه يسمّي نفسَه كاتباً وقد كتب «ثلاثين كتاباً.» في ما يلي مقتطفٌ من كتابه: **يهود الصمت ـ تقرير شخصيّ عن اليهود السوڤيات**:

«العيون ـ يجب أن أحدِّثكم عن عيونهم. عليّ أن أبدأ بهذا الأمر لأنَّ عيونَهم تَسْبق كلَّ شيء آخر، وكلَّ شيء يُمْكن أن يُفهم في داخلهما. وأمّا الأشياء الباقية فبإمكانها أن تنتظر، لأنَّها سوف تؤكِّد ما سبَقَ أن عرفتَه. أما عيونُهم ـ عيونُهم فقد كانت تَتَّقد بتلك الحقيقة المتعذِّرة على الاختزال، التي تلتهب ولكنَّها لا تخبو. لا يمكن إلاَّ أن تحنيَ رأسَك أمامها وتتقبَّلَ الحُكْم، لأنَّكَ تُكْرَهُ على الصمت أمامَها خجلاً. وتغدو أمنيتُك الوحيدةُ الآن أن ترى العالم كما تراها تلك العيونُ. ومن رجلٍ بالغ، حكيمٍ ذي تجارب، تتحوَّل فجأةً إلى عاجز ومسلوب تماماً. فلقد ذكّرتْكَ تلك العيونُ بطفولتك، وبحالك حين كنتَ يتيماً، وتُفقِدك كُلَّ إيمانٍ بقوّة اللُّغة. تلك العيون تُبْطل قيمةَ الكلمات وتَطْرح جانباً الحاجةَ إلى الكلام. منذ عودتي [من الاتحاد السوڤياتي] وأنا أُسألُ غالباً: ماذا رأيتَ في الاتحاد السوڤياتيّ؟ ماذا تراك وجدتُ هناك؟ وكان جوابي دائماً هو نفسَه: العيون، العيون فقط، ولا شيء غيرها. لم أجد مزارعَ جماعيَّةً، ولا مصانعَ للفولاذ، ولا متاحفَ أو مسارح، لا شيء من هذا؛ لم أجد إلاَّ العيون. أذلك كلُّ ما رأيته؟ إنَّه يكفي ... كلُّ أنواع العيون. كلُّ الأحجام والأعمار. عيون واسعة، عيون ضيِّقة...»

[هنا ينفجر نورمان ضاحكاً، قبل أن يعلّق:]

إنَّه مسرح العبث. الرجل مصابٌ بجنون العظمة تماماً. إذْ عمَّ يتحدَّث الجميعُ حين يتحدَّثون مع ڤيزل؟ عن عَيْنَيْه. إذنْ كلُّ ما يتحدَّث عنه هو نفسُه. وحين قال إنَّ كلَّ ما رأيتُه هو العيون كان يقول إنَّ كلَّ ما رأيتُه هو نفسي!

في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي كان السِّباقُ شرساً على منصب مجلس الشيوخ في نيويورك بين ريك لاتزيو وهيلاري كلينتون. كانا يتنافسان على صوت الناخب اليهوديّ. واستحضرتْ كلينتون ڤيزل إلى جانبها. أَأَثَّرَ ذلك في الاقتراع اليهوديّ؟ أيحظى ڤيزل باحترام الجالية اليهوديَّة؟

من الصعب جداً الحديثُ عن الجالية اليهوديَّة. فلأُعطِكَ مثلاً. لقد وصلني عددٌ كبير من الرسائل الإلكترونيَّة بصدد كتابي، وكان قسمٌ كبير منها (حوالى ثلاثة أرباعها) من الجالية اليهوديَّة. كانت الرسائل باللغة الإيجابيَّة، وتستطيع أن تقرأ مَوْقعي الإلكترونيّ لتَحْكم بنفسك ‹www.normanfinkelstein.com›. لم أتورّطْ في ممارسة أيّ رقابة على الرسائل. لكنَّني لا أستطيع أن أقدِّر حقاً أيّ جديّة يُؤْخذ بها هؤلاء المُرْسِلون، ولا الدقّة التي تعبِّر بها وسائلُ الإعلام عن آراء اليهود العاديِّين.

كيف كان ردُّ الناجين من الهولوكوست على كتابك؟

لقد أدهشني ردُّ فعلهم. فلقد افترضتُ أنَّهم لن يقتربوا مني بسبب حديثي عن إسرائيل في الكتاب، وهو حديثٌ بالغُ القسوة. ولكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، بل تلقيتُ منهم ردَّ فعل إيجابياً بشكلٍ كاسح. وأظنّ أنَّهم اعتبروني الشخصَ الذي قد يتمكّن من أن يَكْشف الكذبة برمّتها ويَكْشف كيف يتعرَّضون للاستغلال وللاستخدام. فمثلاً تناولتُ طعامَ الغذاء مع صديقٍ يُعَدّ نموذجاً واضحاً لنمطٍ معيَّنٍ من اليهود الأميركيِّين لكونه يستخدم نعوتاً عنصريّةً كثيرةً في حقّ مَنْ ليس يهودياً ـ وهو ما كان يزعجني جداً؛ وكان من ذلك النمط من اليهود الأميركيِّين الذي قد يضربني على رأسي بمضربٍ بسببِ ما أقوله عن إسرائيل. ولكنَّه كان ممتنّاً جداً ومَديناً جداً لي بسبب كشفي جميعَ أولئك المخادعين الذين يَنْهبون الأموالَ باسم ضحايا الهولوكوست. أعتقد أنَّهم [الناجين] يحبُّونني!

وماذا عن ردود الفعل في إسرائيل؟

لم يكن هناك أيُّ ردّ فعل. لا ردّ فعلٍ على الإطلاق.

■ معظم الرسائل التي وردتني من الجالية اليهوديَّة إيجابيَّة، وأعتقد أنّ الناجين من المحرقة يحبونني ■

ألَمْ يُترجم كتابُكَ إلى العبريَّة؟

الجمـهور الإسرائيليّ القارئ برمَّته يقرأ الإنكليزيَّة. ومع ذلك لم تكن ثمّة مـلاحظاتٌ على الكتاب، ولم يحرِّك أيَّ اهتمامٍ حقيقيٍّ فيهم. وبالمناسبة فإنَّ قلّة [أو انعدام] ردود الفعل في إسرائيل تعود إلى أنَّ الناس هناك يشعرون بأنَّهم أكثرُ حريةً [من أميركا] في نقد صناعة الهولوكوست.

وهل ايلي ڤيزل أيقونةٌ [مقدَّسةٌ] هناك أيضاً؟

لا. إنَّهم يكرهونه.

تعرَّضتَ لمسألة تعويضات الأفريقيِّين ـ الأميركيِّين من عبوديّتهم أثناء حقبة العبوديَّة. أتستطيع أن تعطينا فكرةً عن المرحلة التي وصلتْ إليها هذه المسألة في الولايات المتحدة؟ وما هي آفاقُها في المستقبليْن القريب والبعيد؟

ثمّة جواب سهلٌ عن هذَيْن السؤالَيْن: صفر، صفر. هناك بعضُ الأفارقة الأميركيِّين الذين يتمحور عملُهم حول موضوع التعويضات. وأعتقد أنَّهم لن يحقِّقوا شيئاً مِنْ مرادهم. سينالون واحدةً من تعازي الرئيس الأميركيّ القلبيَّة الحارَّة، ولكنْ لا اعتذارات. حقاً إنَّ ما حدث مُحْزِن جداً، ولكنَّ الاعتذار يَقْضي [تحمُّلَ] المسؤوليَّة، وهذه تقتضي [دفعَ] التعويضات. بالأمس عَبَّرَ كلينتون عن تعازيه، لا عن اعتذاره، للمدنيِّين الكوريِّين الجنوبيِّين الذين قُتلوا في بداية الحرب الكورية برصاص الجيش الأميركيّ.

في السيـاق الفلسطينيّ هناك كـلامٌ على حقِّ العـودة، وحقِّ التـعـويض، ويُطرح الآن على «طاولة المفاوضات.» أتعـتقد أنّ ما حـدث للناجين من الـهولوكـوست في ما يخصّ أموالَ التعويضات سيقدِّم نموذجاً يَتْبعه الفلسطينيُّون إنْ تلقَّوْا يوماً تعويضات؟

أتردّد في إقامة مقارنة كهذه. إنَّ قضية التعويضات شائكة جداً، وفي جميع مناحيها: مَنْ يأخذ التعويض، ومَنْ يحقّ له التعويض، ومَنْ لا يحقّ له، وهل يكون التعويضُ جماعياً أم فردياً... ولأوضحْ وجهة نظري هنا. بالنسبة إلى صناعة الهولوكوست لم يكن الأمرُ متعلِّقاً بالناجين على الإطلاق. بل كان ثمّة أفرادٌ يهودٌ هم الذين شمّوا رائحةَ خدعةٍ لكسب المال، فاستخدموا الناجين واستغلُّوهم لكي يُثْروا. لم يكن الأمرُ متعلِّقاً يوماً بالناجين من الهولوكوست. وقد حكمتْ نُقطةُ الانطلاق هذه كلَّ المراحل اللاحقة. إنّ ما فعلته صناعةُ الهولوكوست لا يمكن أن يكون نموذجاً إلاَّ للمافيا أو للمبتزِّين، لا للمطالبة بالتعويض. أما في ما يخصّ المسألة الفلسطينيَّة فيبدو لي أنَّ الإطار الأساسيّ للحلّ قد كُرِّس بقرار الأمم المتحدة: حق العودة أو التعويض.

«أَوْ» أَمْ «وَ؟»

أظنّ أنَّ القرار يقول: «أَوْ.»

وأنا أظن أنَّه يقول: «و.»

ربَّما يقول «و.» أعتقد أنَّ قرار ١٩٤ هو الذي علينا أن نَهْتديَ به. هذا هو الإطار الذي علينا أن نَسْتعمله، لا أن نبحث عن دروسٍ ممّا حَدَثَ في صناعة الهولوكوست!

كنتُ أقصد إذا حاولت النخبُ الغنيَّةُ [العربيَّة] أن تَنْتزع التعويضات بالطريقة نفسها.

أفهم ما كان سؤالُك يَرمي إليه. ليس ثمَّة ما هو غيرُ مألوف في ذلك كلّه. فحين َتحلّ كارثةٌ طبيعيَّةٌ، كزلزالٍ مثلاً، ويُعطَى البلدُ المنكوبُ مساعدةً، ماذا يحلّ بالمال؟ في المكسيك؟ في السودان؟ الخ... إنَّ ما يحدث دائماً هو أنَّ حوالى ٩٠٪ من أموال الإغاثة تُنْهب. وهذه علةٌ ملازمة لأيّ توزيع للأموال، حين لا يكون ثمّة ضبطٌ ديموقراطيٌّ للأمور نابعٌ من القاعدة الشعبيَّة. ولكنَّ المسألة الأكثر تعقيداً هي كيف تُحلّ قضيَّةُ حقّ العودة. في رأيي أنَّ السمّة الأبلغ «للانتفاضة الثانية» هذه، بالمقارنة مع سابقتها، أنَّها وضعتْ مسألة حقّ العودة في وسط المسرح. عليكَ أن تتذكَّر أنّ أوجَ الانتفاضة الأولى كان «إعلانَ استقلال دولة فلسطين» في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨. آنذاك كانت المسألة الأساسيَّة هي تأسيس الدولة المستقلة، ولم تُذْكرْ مسألةُ حق العودة. أمَّا اليوم فهذه المسألة هي نقطة مركزيَّة لحلّ الصراع.

ولكنّي أعتقد أنّ لقاء عرفات بباراك في واشنطن بَحَثَ حقّ العودة، وكان ذلك بعد بدء الانتفاضة الثانية. وإنّ مَنْ وضع هذا الحقّ في وسط طاولة التفاوض قد كان باراك نفسَه، الذي طالب بإلغائه!

إنّ مَنْ وضعه في وسط طاولة التفاوض قد كان كلينتون، في محاولةٍ لمقايضة حقّ العودة بإعطاء [عرفات] السيطرةَ على الحرم القدسيّ الشريف.

إذن، لم تكن الانتفاضة [الثانية] من أجل حقّ العودة أصلاً؟

لم تكن كذلك فعلاً، ولكنّ هذا الحقّ صار ـ بطريقةٍ أو بأخرى ـ قضيةً مطروحة. فإذا نظرتَ إلى الأدبيّات المكتوبة فستجد أنّ ثمّة الكثيرَ مما كُتب عمّا إذا كانت الدولةُ الفلسطينيّة ممكنةً، وعن مسألة الحدود، والأراضي المحتلّة، وقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، ومدى انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلّة. ولكنّ قرار ٢٤٢ نفسَه، كما تعلم، لا يعالج مسألةَ اللاجئين إلاّ جزئيّاً؛ فهو في النهاية يقول إنّه لا ينبغي أن نعالج مسألة اللاجئين إلاّ على أساس إنسانيّ.

أحبّ أن أعود إلى هذا الأمر لاحقاً، ولكنّي أودّ أن أعود إلى كتابكَ الآن. فقد ذكرتَ فيه بسرعة أنّ الولايات المتحدة جنّدتْ مجرمين نازيّين بعد الحرب العالميّة الثانية. أبوسعك تفصيلُ ذلك؟

هناك كتابات كثيرة عن مدى تجنيد الولايات المتحدة في نهاية الحرب الثانية مجرمي حربٍ نازيّين رفيعي المناصب. والهدف من ذلك هو أنّهم كانوا خبراء في مكافحة الشيوعيّة. فمع تكشُّف فصول الحرب الباردة شيئاً فشيئاً احتاجت الولاياتُ المتحدة إلى ذلك النوع من المعرفة «الخبيرة» بالحركة الشيوعيّة. فتمّ تجنيدُ مجرمي حرب، بمن في ذلك أناسٌ أمثال كلاوس باربي Claus Barbie، المسمَّى «جزّارَ ليون» الذي حُوكم من جديد في فرنسا منذ عشرة أعوام تقريباً. وكان هناك عددٌ كبيرٌ من النازيّين السابقين الذين تمّ تجنيدُهم في الولايات المتحدة لأهداف مختلفة، ومن ضمنها أهدافٌ «علميّة.» ثمّة الكثير المكتوب في هذا الموضوع، مثلاً ما كتبه كريستوفر سيمپسون: **الوحش الأشقر الرائع: المال والقانون والإبادة الجماعيّة في القرن العشرين**؛ وفي هذا الكتاب ـ بالمناسبة ـ تمّ اتّهامُ كورت ڤالدهايم.* والحقّ أنّ ڤالدهايم لم يُتَّهم قطُّ بقتل أيٍّ كان ولا بتعذيبه، بل كان متَّهماً بالترجمة لوحدةٍ عسكريّةٍ نازيّة. وأمّا النازيُّون الذين كانوا على جدول رواتب المخابرات المركزيّة الأميركيّة فقد كانوا مجرمي حرب من الدرجة الأولى. فلأقتبسْ مقطعاً واحداً فحسب من كتاب سيمپسون. ففي تعليقه على ألان دالَس، الذي كان رئيسَ المخابرات المركزيّة الأميركيّة بعد الحرب الثانية، يَكْتب ما يلي:

«لقد تدخَّل شخصياً لكي يَضْمن أن يُفْلِت من المحاكمة أصحابُ مصارف ألمان كبار وصناعيُّون كبار تواطأوا في جريمة الإبادة النازيّة عبر برامج العمل الإجباريّ. وحمى دالَس أيضاً كارل وولف، وهو أعلى موظَّف في جهاز الاستخبارات «أسْ أسْ» النازيّ كان قد نجا من الحرب، وواحدٌ من الرُّعاة الأساسيِّين لمعسكر الإبادة المعروف باسم 'تربلينكا'. وحمى أيضاً عدداً من مساعدي وولف الأعلين الذين كانوا قد اتُّهِمُوا بالمسؤولية عن تهجير اليهود إلى معسكر أوشڤيتز، وبالمسؤولية عن المجازر ضدّ محازبين إيطاليِّين.»

في الفصل الأول من كتابكَ ذكرتَ أنّ الولايات المتحدة قبل حرب ١٩٦٧ كانت معتدلةً نوعاً ما في ما يخصّ الشرق الأوسط، وأنّها آثرت العربَ فترةً من الزمن على حساب الإسرائيليِّين؟

الولاياتُ المتحدة لم تكن معتدلةً في أيّ يوم من الأيام. ولكنّها في ذلك الزمن لم تَعتبر إسرائيل نافعةً لها. ولم تكن قد قررتْ بعدُ أن تعلِّق معظم آمالِها الإستراتيجيّة على إسرائيل.

أذكر أنّني قرأتُ شيئاً في كتابك الأول عن كيفيّة استخدام الولايات المتحدة سياسةَ ليّ الذراع عام ١٩٤٨، وحين منحت الأممُ المتحدة إسرائيلَ شرعيةَ الوجود. فلقد ضغطت الولاياتُ المتحدةُ كثيراً على الدول الأخرى لتصوِّت إلى جانب القرار. وعلاوةً على ذلك كان رئيسٌ من رؤساء الولايات المتحدة، وهو روزفلت على ما أظنّ، التقى قبل ذلك الملك سعود عاهلَ المملكة العربيّة السعوديّة، وطلب منه أن يَدْعم إنشاء دولة إسرائيل، ولكنّ الملك سعود عارض إنشاءها. غير أنّ المهم هو أنّ الولايات المتحدة دعمتْ إسرائيل منذ البداية. فلماذا يعطي كتابُكَ الانطباعَ بأنّ الولايات المتحدة آثرت العربَ في فترةٍ من الزمن؟

قرار ١٩٤ هو الذي علينا أن نستعمله لحلّ المسألة الفلسطينيّة، لا أن نقتدي بصناعة الهولوكوست

* ـ رئيس جمهورية النمسا بين عامَيْ ١٩٨٦ و ١٩٩٢. وقد دين بالتعامل مع النازيّة زمنَ الحرب العالميّة الثانية. (م)

لم يكن لدى الولايات المتحدة إحساسٌ قاطع بأنَّ إسرائيل هي الرصيد الحيويُّ والأوحدُ لقوَّتِها في الشرق الأوسط. وكان هذا هو إلى حدٍّ كبير إحساسَ البريطانيِّين أيضاً. فلقد دَعَمَ البريطانيُّون إنشاءَ الدولة اليهوديَّة، ولكنْ راودتْهم الشكوكُ أحياناً. كان ثمّة بالتأكيد انقساماتٌ داخل النخبة البريطانيَّة الحاكمة إزاء مسألة إسرائيل، وبعضُ البريطانيِّين اعتقدوا أنَّ هذه المسألة ستزيد من ابتعاد العرب [عن البريطانيِّين]. وقد تكرَّرتْ هذه الانقسامات بعد ذلك في النُّخبة الأميركيَّة الحاكمة حين صارت الولايات المتحدة قوةً مسيطرة: فمثلاً لم يكن وزيرُ الخارجية مارشال ميّالاً على الإطلاق إلى الدفاع عن إسرائيل ولا إلى تأسيسها. ولم يَدْعم الرئيس ترومان هو الآخر إنشاءَ إسرائيل، وإن اعتَقَدَ أَنَّ ذلك الدعم سيفيدهما في كسب أصوات الناخبين اليهود. في الفترة الممتدة بين عامَيْ ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ستلاحظ الكثيرَ من المشاعر الأميركيَّة المتضاربة حيال إسرائيل. فأثناء حُكْم آيزنهاور كانت المعارضة الأميركيَّة لإسرائيل ربّما تفوق التأييدَ لها. ومع ذلك كانت هناك صراعاتٌ مختلفة على مياه المنطقة، وقد دَعَمَ آيزنهاور إسرائيلَ، وبلغ الأمرُ ذروتَه في حرب السويس. ثم بدأت الأمور تتغيَّر في أوائل الستينيَّات عندما فَقَدت الولاياتُ المتحدة الأملَ في توجيه قوميَّة عبد الناصر العربيَّة وجهةً «معتدلةً،» وازداد عبد الناصر تحالفاً مع الاتحاد السوڤياتي، وبدأ يصبح أكثر استقلالاً. وحين جاء كينيدي ازداد تحالُفُ الولايات المتحدة مع إسرائيل، واشتدّ قوّةً أثناء حكم إدارة جونسون.*

تَذْكر في كتابكَ أنَّ النخبة اليهوديَّة الأميركيَّة على استعداد للتخلّي عن الجماهير اليهوديَّة إذا تعارضتْ مصلحةُ الولايات المتحدة مع مصلحة إسرائيل. وشرحتَ أيضاً أنَّ الأمر نفسَه حَدَث في أوروبا أثناء الحرب العالميَّة الثانية مع النخبة اليهوديَّة الأوروبيَّة. أوَتَرى أيَّ سببٍ يَدْفع المصالح الأميركيَّةَ في المستقبل إلى أن تتعارض مع المصالح الإسرائيليَّة؟

في ما يخصّ قضايا الشرق الأوسط جميعها، أنا يائس تماماً! الكلّ يَعْلم أنَّه حتى لو نالَ الفلسطينيُّون دولةً مستقلّةً بموجب قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ فستواصل إسرائيل خدمةَ مصالح القوى الغربيَّة ولاسيَّما الولايات المتحدة. والسبب الرئيسيّ في ذلك هو أنَّ إسرائيل كائنٌ غريبٌ مزروعٌ في المنطقة، أسَّستْه الإمبرياليَّةُ الأوروبيَّة، ومرجعيَّتُه الحضاريَّةُ هي العالمُ الغربيّ، ونظرتُه الحضاريَّةُ إلى محيطه قائمةٌ على الاحتقار، ونظرتُه السياسيَّةُ إليه قائمةٌ على إرادة السيطرة، ونظرتُه الاقتصاديَّةُ إليه قائمةٌ على الاغتراب عنه وهي الآن قائمةٌ على إرادة الهيمنة عليه. حتى لو نال الفلسطينيُّون دولةً مستقلةً تماماً فستبقى إسرائيل مصدرَ خلافٍ في المنطقة، ولا أظنّ أنَّ هذه الدولة ستخفِّف كثيراً من حدَّة الصراع بين إسرائيل والعالم العربيّ. وأعتقد أنَّه لمّا كانت الدولةُ الفلسطينيَّةُ ليست إلى حدّ كبير أمراً قابلاً للاستمرار فستكون ألعوبةً بيد الدول العربيَّة والقوى الغربيَّة. ثمَّة شعور بأنَّ مصير الفلسطينيّين، حتى لو أسَّسوا دولتَهم، لن يكون في أيديهم هم. أوَسمعتَ [الرئيس] عرفات يستشير أحداً في فلسطين، باستثناء الإمَّعات الذين يحيطون به؟ إنَّه يذهب إلى القاهرة، ويذهب إلى الأردن، ويذهب إلى السعودية، ويذهب إلى واشنطن، ولكنَّه لا يتحدَّث إلى شعبه!

عن روجيه غارودي

أهناك تعريف دقيق لـ «مُنْكِرِ الهولوكوست»؟

أعتقد أنَّه من العدل أنْ نسمِّي مَنْ ينفي وجودَ غرف الغاز، أو ينفي أن يكون اليهودُ قد أُبيدوا بشكل منهجيّ ومنظّم، مُنْكِراً للهولوكوست. أَشْعر أنَّ موضوع «مُنْكري الهولوكوست» شبيهٌ بموضوع «جمعية الأرض المسطَّحَة!» ولكنْ للأسف في العالم العربيّ القصةُ مختلفة: فأناس أمثال غارودي يبدو أنَّهم يَحْظَون بحضورٍ وبروزٍ هناك.

وما موقفك من روجيه غارودي؟

غارودي، شخصاً، هو كايلي ڤيزل من حيث الإثارة الفكريَّة. إنَّه معتوه، مخبول، بدأ مسيرته الفكريَّة ستالينياً معتوهاً، ثم صار متمسِّحاً معتوهاً، وهو الآن متأسلمٌ معتوه. والخيط المشترك في جميع تجسُّداته هو أنَّه معتوه. وفي عالمٍ صحيحِ العقل، لا بدّ أن يكون غارودي في مصحّة!

* ـ حَكَمَ ترومان الولايات المتحدة بين ١٩٤٥ و ١٩٥٣، وتلاه آيزنهاور (١٩٥٣ ـ ١٩٦١)، فكينيدي (١٩٦١ ـ ١٩٦٣)، فجونسون (١٩٦٣ ـ ١٩٦٩). (م)

كيف؟

إنَّه يعتنق أيَّ عقيدةٍ جامدةٍ [دوغما] ذاتِ نفعٍ سياسيّ، فيؤوِّلها بطريقة غير عاقلة. أن يَنْتقل واحدٌ من الستالينيَّة إلى الأصوليَّة المسيحيَّة ثم إلى الأصوليَّة الإسلاميَّة، فكيف لك أن تأخذ شخصاً كهذا على مَحْمل الجدّ؟

إنَّك تتحدَّث عن مسيرته السياسيَّة. ولكنْ ماذا عن عمله؟

ليس ثمّة من عمل! إنَّه مثل ڤيزل، و[ايديولوجيا] الهولوكوست. عملُه محضُ هراء. ماذا يعرف غارودي عن الهولوكوست؟ لا شيء!

بالعودة إلى راوول هيلبرغ الذي تَسْتَشهد به كثيراً جداً، سأَقْتبس شيئاً قاله عن مُنْكِري الهولوكوست: «إذا أراد هؤلاء الناس الكلامَ دعوهم يفعلوا ذلك. فهذا لن يعدو أن يقودَنا، نحن الباحثين، إلى إعادةِ تفحُّصِ ما يُمْكن أن نكون قد اعتبرناه من الأمور الواضحة، وذلك شيءٌ مفيدٌ لنا.»

الأرجح أنَّني أتفق مع ذلك الرأي.

أينطبق ذلك على غارودي؟

كلا، إنَّ هيلبرغ يَقْصد أشخاصاً مثل دايڤيد ايرڤين Irving الذي أدَّى دورَ «محامي الشيطان.» فأشخاصٌ مثل إيرڤين يطّلعون على الوثائق كلّها، فيبحثون عن الأخطاء والمغالطات وانعدام الاتّساق والتناقضات، وهم في مساعيهم عاقلون تماماً ــ إنْ كان لي أن أستخدم هذه الصفة. إنَّهم يقومون بعملهم ويَكْشفون الأخطاء، وهذا مفيدٌ جداً. وأمَّا الأستاذ غارودي فلا يقوم بأيّ بحث، ولا يَنْظر إلى الوثائق. إنَّه عديم القيمة!

غارودي لا يعرف شيئاً عن الهولوكوست؛ إنَّه عديم القيمة!

إنَّ إيرڤين يؤدِّي عمله جيداً، ولا شكّ في ذلك، وقد يكون مثيراً للانتباه. في رأيي أنَّ ايرڤين يَعْتبر عمله بأكمله مزحةً. أعتقد أنَّه يَعْلم أنَّه كانت هناك غرفُ غازٍ حقاً. وأعتقد أنَّه يَعْلم أنَّ الهولوكوست النازية حدثتْ فعلاً، وأنَّ هتلر كان المحرِّك الرئيسيّ للهولوكوست، لا كما يَزْعم هيلبرغ من أنّ هتلر لم يكن يعرف شيئاً عن الهولوكوست وأنّ غوبلز هو صاحب الفكرة. أعتقد أنّ ايرڤين يَفْعل ذلك كلّه لأنَّه من ناحيةٍ يحبّ الدعاية، ولأنَّه من ناحية ثانية يحبّ أن يَفْرك أنفَ القائمين على صناعة الهولوكوست. لقد أَرْسل إليّ بطاقةَ معايدةٍ لعيد الميلاد وتمنّى لي الحظَّ في عملي. إنَّه يَعْلم تماماً موقفي من هذه الأمور. إنَّه يَعْلم أنّ عائلتي أُبيدتْ في غرف الغاز. أَظنّ أنَّه يُنْكر أموراً يَعْلم أنَّها حصلتْ فعلاً، والأسبابُ هي ما سَبَقَ أن ذكرتُه.

أعرف أنَّ هناك الكثيرَ من الأمور الشخصيَّة هنا. فها نحن نجلس في شقّتك في بروكلين، وأستطيع أن أرى على الجدران صوراً لأفراد عائلتكَ الذين أُبيدوا في الهولوكوست النازيَّة. وأن يأتي إليك شخصٌ ليقول لك إنَّ الهولوكوست لم تَحْدث قطّ فذلك سيشكّل إهانةً شخصيَّةً كبيرة لك، ولاسيَّما أنَّ جميع أقارب أبيك وأمّك أُبيدوا. في العالم العربيّ نال غارودي دعايةً كبيرة، وله معجبون كثر. وحين أقرأ كتابه الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيليَّة * أجد أنَّه أثار مسائلَ مدهشةً أرغب في أن توضحها أنتَ للجمهور العربيّ. فمثلاً يتحدَّث عن رقم الملايين الستة الذين قُتلوا في الهولوكوست، فيقول إنَّه في تلك الفترة كان هناك ٤ ملايين في اَوشڤيتز ومليونان في أماكن أخرى. ويقول إنَّ الرقم في اَوشڤيتز قد عُدِّل عدّة مرّات. وقد قرّرت الدراساتُ الألمانيَّة والمؤرِّخون الألمان أنَّه من غير الممكن أن يكون عددُ الأشخاص الموجودين في اَوشڤيتز وحدها ٤ ملايين. وهكذا عُدِّل رقمُ الناس في اَوشڤيتز ليصير مليوناً واحداً، ولكنْ بقي العددُ الإجماليّ لضحايا الهولوكوست ٦ ملايين. أبمقدورك أن تفسِّر السبب؟ وما هو ردّك على تشكيك غارودي في وجود غرف غاز؟

أعتقد أنّ جوابي سهل. وهو أنَّني لستُ خبيراً في هذه المسألة، ولا أستطيع أن أُفسِّرَ لك كيف تمَّ التوصُّلُ إلى هذه الأرقام. ومع ذلك أستطيع أن أقول إنَّ علينا في هذه المسائل، كما في معظم الموضوعات المحدَّدة كالديموغرافيا والديون، أن نَرْجع إلى المطَّلعين الذين يَمْلكون سجلاً يَشْهد على دقّتهم. وهذا هو أفضل ما أستطيع أن أجيبك به. لقد كتب عددٌ من الباحثين الذين يُعتبرون مَرْجعاً في

* ــ صدر بترجمة عربية عن دار عطيّة، بيروت، ١٩٩٦. وراجعه لمجلّة الآداب عبد الرزّاق عيد في العدد ٥/٦، ١٩٩٨. (م)

هذا الموضوع، وأعتبرهم أنا ثِقاتاً، ولا سببَ يدعوني إلى التشكيك في صدقيّتهم، والأرقامُ التي توصّلوا إليها تَقَعُ ما بين ٥ و ٥،٥ مليون ضحية. هذا هو أقصى ما أستطيع قوله. لن أَدْخل في التخمينات لأنَّني لم أقم بأيّ عمليّات حسابيَّة، وأنا متأكّدٌ أنّ الأستاذ غارودي لم يقم بها هو الآخر! وإذا نظرتَ إلى المجلّد الثالث من كتاب هيلبرغ **تدمير اليهود الأوروبيّين** فستجد أنَّه وَضَعَ ملحقاً من ٢٠ صفحة يفصّل في كيفيَّة حسابهِ لهذه الأرقام. هذه الموضوعات معقَّدة جداً، وفيها جداولُ كثيرة، وأرقامٌ كثيرة، وتصنيفاتٌ كثيرة. وسيكون ادّعاءً بالغاً من طرفي أن أحاول أن أَنْخرط جديّاً في موضوعٍ لا أعرف عنه شيئاً بصراحة. ما عليّ أن أقوله هو أنَّني لن أستمع إلى ما سيقوله غارودي. فهو لم يَقُمْ بأيّ بحث.

عن الانتفاضة الجديدة

أحبّ أن أتحدَّث معك عن الهبَّة الجديدة في فلسطين، المعروفة باسم «الانتفاضة ٢،» مع أنّ توماس فريدمان الذي يكتب في نيويورك تايمز قال في البداية إنَّ الانتفاضة الجديدة لا تَحْمل معنى الانتفاضة الأولى لأنَّها لا تحمل الاسم ذاته. لقد أمضيتَ وقتاً طويلاً في فلسطين أثناء الانتفاضة الأولى، وكان كتابُك: صعود فلسطين وأفولها **عن هذه الانتفاضة.* فكيف تقارن بين الانتفاضتَيْن؟**

كملاحظة أولية أقول إنَّني لستُ متأكّداً إنْ كنتُ سأسمِّي ما يَحْدث الآن انتفاضة! فليس واضحاً أبداً إلى أيّ مدى تتمّ إدارةُ الحلقة الراهنة من المقاومة والتحكُّمُ بها من «فَوْق.» لستُ مقتنعاً إلى الآن بأنَّه لو شاء عرفات أن يُوقفها فلن يستطيع ذلك. وتحدثتُ أيضاً إلى عدد كبير من الأشخاص هناك الذين يشاركونني شُكوكي. أعتقد أنَّه [عرفات] قادرٌ [على وقفها]. إنَّه يواصل التحكُّم بمسار المقاومة. وهذا لا يعني أنَّها لم تأتِ من «الأسفل؛» فهي قد جاءت من القاعدة حقاً. ولكنَّني لستُ مقتنعاً بأنَّها خرجتْ عن السيطرة. لستُ مقتنعاً بأنَّ عرفات لو شاء أن يَسْحقها فلن تكون لديه القوَّةُ على ذلك.

ثم إنَّ شيئاً من السمات التي ميَّزت الانتفاضةَ الأولى لم يُعَدْ إنتاجُه في الثانية. صحيح أنَّ الإعلام رَكَّزَ على رمي الحجارة في الانتفاضة الأولى، ولكنّ حقيقةَ الانتفاضة الأولى لم تكن كذلك. الانتفاضة الأولى كانت عبارةً عن مختلف أنواع المنظّمات واللجان الشعبيَّة، وعن إعطاء القوّة للناس العاديِّين، وعن إشراكِ هؤلاء الناس في المقاومة. لقد اتّخذتْ تلك الانتفاضةُ أشكالاً عديدة: فكان ثمّة لجانٌ شعبيَّة للتعليم، بل لجانٌ شعبيَّةٌ لكلّ نشاط. ولكنّ الأمر لم يعد كذلك الآن. فليس ثمّة مشاركة جماهيريَّة اليوم، بل أسمّي ما يحدث الآن تفرُّجاً جماهيرياً mass spectatorship. لم يَعُد الناسُ من كلّ الأعمار واقفين أمام الحواجز كما كانوا يفعلون في الانتفاضة الأولى. ولأتحدّثْ عن الشخصيَّتَيْن الرئيسيَّتَيْن في كتابي الأول: موسى وسميرة. فسميرة لا تشارك البتةَ [في المقاومة الجديدة] ولا يُشاركْ أيُّ فردٍ من أفراد عائلتها أيضاً. وموسى يَعْمل لـ «بتسالم» [وهي منظمة حقوقيَّة إسرائيليَّة] باحثاً ميدانياً، فيذهب ويَكْشف ما إذا كان الجنودُ عند أيّ اصطدام يَفْتحون النارَ قبل أن يتعرَّضوا للخطر، وهكذا. إنَّه هو الآخر لا يُشارك؛ إنَّه متفرّج. وأولاد موسى وسميرة، وهم الآن في سن المراهقة، لا يشاركون هم أيضاً. إنّ ما يحدث الآن ليس هبة شعبيَّة. ليست شعبيَّةً بمعنى انخراط الجميع في لجان معيّنة. في الانتفاضة الأولى كان الجميع منخرطاً في مقاطعة البضائع الإسرائيليَّة. كان موسى قد أنشأ مزرعةَ دجاج في فناء بيته. وكان الجميعُ يَعْلمون أنّ عليهم أن يشتروا الحليبَ من أريحا [ليشجِّعوا الصناعةَ الوطنيَّة لا الإسرائيليَّة]. كان الجميعُ منخرطين بشكلٍ ما، وبطريقةٍ ما. كانت سميرة تُعلِّم أطفال الحيّ في منزلها، لأنَّ المدارس كانت مُغْلقة. لقد كان رميُ الحجارة هو المظهرَ السطحيّ للانتفاضة؛ كان رُعبَ الانتفاضة. اليوم ليس ثمّة قيادة مدنيّة سريّة أو علنيّة. الإعلام يتحدّث عن أشخاص مثل مروان البرغوثي، وهو أمين سر حركة «فتح» في الضفّة، حين يتحدَّث عن معارضين [أفراد] لا عن منظمّات شعبيَّة. بصراحة، لا أجد تشابها كبيراً بين ما يحدث الآن والانتفاضةِ الأولى. إنّ ما يجري الآن يُشْبه إحباطاً شعبياً popular frustration، وهو الذي يقف وراء تكتيكات عرفات المعتادة من فتح «الحنفيَّة» ثم إغلاقِها لمزيدٍ من الضغط على الإسرائيليّين والأميركيِّين. لقد كانت السمةُ الأساسيَّةُ للانتفاضة [الأولى] هي وضعَ الناس مستقبلَهم في أيديهم، وإحساسَهم، بل وتعبيرَهم الفعليَّ، عن أنّ مصيرهم هو في أيديهم. على المرء أن يتذكّر أنّ الانتفاضة الأولى بدأتْ في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧، في أعقاب القمّة العربيَّة التي تجاهلت الفلسطينيّين. لقد

١ ـ صدر بالعربيَّة عن دار كنعان، دمشق، عام ٢٠٠٠، بترجمة أيمن حنا حداد. (م)

حدثتْ حين شعروا أنَّهم لن يَلْقوا أيَّ دعم من العالم العربيّ، ولا أيَّ دعم من الولايات المتحدة بالتأكيد. وبزغت الانتفاضةُ الأولى من شعور الفلسطينيِّين بأنَّهم إما أن يستطيعوا أن يقوموا بها وإمّا أن لا يحدث شيءٌ على الإطلاق. أما الآن فإنَّ هذه الانتفاضة الثانية، أو ما شئنا أن نسمِّيَها، مختلفةٌ كلياً لأنَّ الإحباط الشعبيّ يَعْمل هنا بمثابة محرِّكٍ بخاريٍّ لـ «ديبلوماسيّة» عرفات. ليس لما يجري الآن ديناميةٌ داخليَّةٌ كما كان عليه وضعُ الانتفاضة الأولى. الكلُّ يُجْمع على أنّ الأولى شهدتْ توقفَ الفلسطينيِّين عن المراهنة على الجميع، وعلى أنَّهم حاولوا أن يأخذوا الأمرَ على عاتقهم. وأما الآن فإنَّ ما يجري مختلفٌ تماماً، لأنَّ أساسه، ولبّه، وتوجُّهاته، كلَّها تقودها «ديبلوماسيَّةُ» عرفات. والواقع، ولأكنْ صريحاً، كان هذا تماماً هو ما أَخْرَج الانتفاضةَ الأولى عن مسارها، أيْ حين بدأ عرفات يستخدمها من أجل ما يسمَّى «ديبلوماسيَّته.» ذلك هو ما حوَّلها إلى ما هي عليه الآن من كارثة. أَوَيؤْمن الناسُ هناك بأنَّهم يتحكَّمون بقَدَرهم كما كان شعورُهم في الانتفاضة الأولى؟ كلا. أَوَيؤْمنون بأنَّ قيادتهم تستطيع أن تأتيهم بدولة مستقلّة؟ في رأيي، كلا. إنَّ كثيراً ممّا يجري مبعثُه الإحباطُ. وإنْ كان ثمّة فكرٌ واعٍ أو عقلانيّ يَدْفع وراء ما يجري فهو أنَّ ما نفعله، نحن الفلسطينيِّين، الآن قد يَنْتزع من الإسرائيليِّين «تنازلاتٍ» أكثر. ولكنَّه دائماً يأتي في سياق انتزاع التنازلات عبر الديبلوماسيَّة، وهذا هو أسلوبٌ عرفاتيٌّ. قد أكون مخطئاً لأنَّني لم أزر فلسطين مؤخّراً. ولكنَّني لم أسمع أيَّ نقاشٍ عن اللجان الشعبيَّة، بل لم أسمع أيّ نقاش عن وجود زعمٍ بالمشاركة الشعبيَّة!

إنَّ مَرْكز نشاط هذه الانتفاضة هو خلايا المقاومة المسلّحة، وهذا هو في الأساس عملُ المنظمات المسلّحة المختلفة في الضفّة الغربيَّة. وذلك هو كلُّ ما في الأمر.

لماذا يُتّهم الفلسطينيُّون بالتطرُّف مع أنَّهم يستندون إلى قرارات الأمم المتحدة وحدها؟

الانتفاضة والإعلام الأميركيّ

أترى أيَّ اختلافٍ في التغطية الإعلاميَّة في الولايات المتحدة ما بين الانتفاضة الأولى والانتفاضة الثانية، إنْ صحّتْ تسميةُ ما يجري مؤخَّراً بذلك؟

إنَّ الولايات المتحدة في ما يخصّ قضايا الشرق الأوسط هي ما كان يَحْلم ستالين به! فالامتثال الإعلاميّ [لرأي الإدارة الأميركيَّة] هو حوالى ١٠٠٪. أثناء الانتفاضة الأولى، وتحديداً في سنتها الأولى أو ما قارب ذلك، كانت التغطية الإعلاميَّة الأميركيَّة هي الكارثةَ الإعلاميَّةَ الأسوأَ على إسرائيل منذ اجتياحها للبنان عامَ ١٩٨٢. بالطبع الكوارث نسبيَّة. فقد اعتبرتْها إسرائيل كارثةً لأنَّ حوالى ٢٪ من الحقيقة تسرَّب إلى الإعلام؛ وهذا في حدّ ذاته كارثة لأنَّ أيّ تسرُّب للحقيقة تَعُدّه إسرائيل مؤامرةً عالميَّة ضدّها. في الانتفاضة الثانية لم يتسرّب أيضاً أكثر من ٢ ـ ٣٪ من الحقيقة، ولكنّ ذلك أيضاً كان كافياً لبثّ الذعر في إسرائيل.

لاحظتُ في تغطية نيويورك تايمز للانتفاضة الجديدة نوعاً من التفاوت. أنا أعلم أنّ لهذه الجريدة خطةً [أجنْدةً] في الولايات المتحدة، في ما يختصّ بالسياسة الخارجيَّة. وهكذا تجد افتتاحيةً تَدْعم إسرائيل وتهاجم عرفات وتنتقد الفلسطينيِّين بحجّة استخدامهم أطفالَهم «دروعاً بشريَّة،» ثمّ تجد في اليوم التالي مَنْ يكتب عن ضرورة تقسيم القدس أو يبشِّر بحلول أكثرَ عقلانيةً. ومنذ حوالى الشهر نشرَتْ نيويورك تايمز ماغازين مقالةً من ٦ صفحات عن أطفال الانتفاضة، وكان مذهلاً شدّةُ إنصاف هذه المقالة. كيف تفسِّر هذا التفاوت؟

في لحظاتٍ كهذه يَصْعب أن تَضبط وسائلَ الإعلام مئةً في المئة. أولاً على جريدة مثل **نيويورك تايمز**، لكَيْ لا تبدو دعائيةً تماماً ـ وهي الجريدة المنتشرة على الصعيد الأميركيّ بأكمله وعلى الصعيد العالميّ أيضاً ـ أنْ تَأْخذ في عين الاعتبار تعليقاتِ الخارج وتهكُّمَه، ولذا كان لا بدّ من أن يتسرّب بصيصُ حقيقةٍ إليها. وأمّا في السياق الأعمّ، فلو أخذتَ كتّاب أعمدةٍ دائمين في هذه الجريدة، فستجد أنَّ توماس فريدمان دعائيٌّ لإسرائيل، ووليام سافاير دعائيٌّ لإسرائيل، وأنتوني لويس دعائيٌّ لإسرائيل ولكنَّه أكثرُ اعتدالاً. وحين تقارن تغطيةَ هذا الحدث بما فعلَتْهُ الصحافةُ البريطانيَّةُ فستلاحظ شدةَ تطرُّف صحافيِّي الولايات المتحدة في تبريراتهم لما جرى. كنتُ أُلْقي نظراتٍ عجلى على الصحف فوجدتُ مقالةً عنوانُها «ساعةُ الشرق الأوسط تدقّ، وربّما لم يسمعْها البعض.» وسأقرأ لك مقطعاً منها جعلني أتوقف عن

إكمالها: «يسعى الأميركيُّون في الحدّ الأدنى إلى دفع أزمة العنف إلى الاستقرار، ويقول المسؤولون الأميركيُّون إنَّهم رأوا بعضَ العلامات الإيجابيَّة على الأرض هذا الأسبوع. [ولكنْ] لم ينتهِ العنف. فقد كان هناك إطلاقُ نار من مسلَّحين فلسطينيِّين الخميسَ ليلاً، واليوم قتلت القواتُ الإسرائيليَّة فلسطينياً.» وتتابع المقالة فتقول إنَّ اشتباكاً حصل قرب رام اللّه، فجُرح ١٢ فلسطينياً بالرصاص المطاطيّ. اللافت أنَّ على الحادث أن يبدأ دائماً بـ «إطلاق نار من مسلَّحين فلسطينيِّين.» فلِمَ ذُكر هذا الأمر؟ [ليلَ الخميس] لم يُقْتل أحدٌ، ولم يُجْرَحْ أحدٌ، ويُفترض أن يكون الإسرائيليُّون قد أَطْلقوا النارَ هم أيضاً، ومع ذلك فإنَّ على الفلسطينيِّين أن يكونوا هم دائماً المبادِرين إلى إشعال العنف!

كنتُ أستمع إلى أخبار الراديو اليوم، فعلّق مراسلٌ على المفاوضات بالقول إنَّ عرفات فشل في إحداث اختراق فيها. وهذا مثالٌ آخر على اللّوم الذي يُلقَى على الفلسطينيِّين [عرفات].

ولكنْ حتى لو وافق عرفات! هاكِ مقطعاً آخر من المقالة نفسها يقول: «الفلسطينيُّون، الذين استندوا في مطالبهم إلى تأويل متطرّفٍ maximalist لقراراتٍ عدَّةٍ صادرةٍ عن الأمم المتحدة، اعتقدوا أنَّ المستر كلينتون يحاول أن يُحِلّ خطةَ عمله مكانَ القرارات الدوليَّة» (وهو ما كان يحاوله كلينتون حقاً). لماذا استخدامُ كلمة «متطرّف» في وصف موقف الفلسطينيِّين؟ إنَّهم يستندون في تأويلهم إلى قرارات الأمم المتحدة. ومع هذا فإنَّ مجرَّد استخدام عبارات قرارٍ للأمم المتحدة يُصبح أمراً متطرِّفاً جداً!

أثناء تداولات الأمم المتحدة التي قادت إلى قصف العراق في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ طالبت الولاياتُ المتحدة بانسحاب العراق لا من كامل الأراضي الكويتيَّة فحسب بل من جزيرتَيْن معزولتَيْن أيضاً. وكانت هاتان الجزيرتان تعطيان الرئيس صدام حسين مَنْفذاً على المحيط الهنديّ. وجرى بعضُ الحديث عن السماح له بالاحتفاظ بهما. فهل اتَّهم أحدٌ الولايات المتحدة باستخدام تأويلٍ متطرّفٍ لقرارات الأمم المتحدة؟ لقد كان ذلك تأويلاً متطرِّفاً حقاً. ومع ذلك فإنَّ التطرُّف [في الحالة الفلسطينيَّة] يصبح ـ بطريقةٍ ما ـ هو الالتزامَ بمتطلَّبات قرارات الأمم المتحدة! إنَّ التغطية الإعلاميَّة بأكملها هي على النحو التالي: الفلسطينيُّون يبادِرون إلى العنف، الفلسطينيُّون متطلِّبون، الفلسطينيُّون متطرِّفون، الفلسطينيُّون يَدْفعون المفاوضات إلى الانهيار. ولكنْ، من حين إلى آخر، يتسرَّب إلى الإعلام بصيصٌ من الحقيقة.

الإعلام يَزْعم أنَّ الفلسطينيِّين عُرض عليهم ٩٥٪ من الأرض. وقد أشرتَ ذاتَ مرة إلى أنَّ هذا الرقم لا يمكن أن يكون صحيحاً لأنَّ الإسرائيليِّين ضمّوا حتى الآن ٢٥٪ من الضفّة الغربيَّة إلى إسرائيل مع قدس موسَّعة. أبإمكانك أن تفصِّل الحديث في هذا الأمر؟

ما نَعْلمه هو أنَّ معاهدة أوسلو دَعَتْ إلى مفاوضاتٍ للحلّ النهائيّ يعالجُ خمسَ مسائل، ويتوقَّف حلُّ الصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ عليها. فَلْنَر ماذا تحقَّق.

المسألةُ الأولى: المياه، وهي المسألة الأهمّ في رأيي. النتيجة التي تحقَّقتْ في هذا المجال صفر، في جميع الخطط : خطة كلينتون، والجواب الإسرائيليّ، والجواب الفلسطينيّ.

المسألة الثانية: اللاجئون. إسرائيل في هذه المسألة لا تعترف أصلاً بمسؤوليَّتها عمّا جرى عام ٤٨. كلُّ ما هي مستعدَّةٌ للقيام به هو الاعتراف بأنَّ مصير الفلسطينيِّين بعد ١٩٤٨ كان حزيناً. وهذا شبيه بموقف كلينتون [إزاء الكوريِّين الجنوبيِّين]. وسيُرسلُ الإسرائيليُّون بطاقةَ تعزيةٍ كبيرة إلى الفلسطينيِّين. إذن النتيجة في مسألة اللاجئين: صفر، للفلسطينيِّين.

المسألة الثالثة: المستوطَنَات والمستوطِنون. هناك أرقام مختلفةٌ طُرحتْ هنا وهناك في هذا الصدد. وأحد الأرقام التي رأيتُها، وهو رقم متطرِّف، يَذْكر أنَّ على ٤٠ ألف مستوطِن أن يعودوا إلى إسرائيل [خط ٤٨]. ولكنّ هناك ٣٣٠ ألف مستوطن يتوزَّعون بين ١٣٠ ألفاً في القدس الموسَّعة و٢٠٠ ألف في الضفّة الغربيَّة من دون القدس الموسَّعة. إذن في هذه المسألة نال الفلسطينيُّون حوالى ١٠٪ من مطالبهم.

المسألة الرابعة: القدس. سينال الفلسطينيُّون بعضَ الأحياء التي لا يريدها الإسرائيليُّون لأنَّهم لا يريدون أن يَجْمعوا قُمامةَ العرب ولا يريدون أن يَدْفعوا أيّ قرشٍ للمدارس العربيَّة. ولهذا سيحصل الفلسطينيُّون على أحياء عربيَّة مطوّقة تماماً بأحياء يهوديَّة. سينالون جُزُراً صغيرةً في القدس الموسَّعة. وسيحصلون أيضاً على الطابق الثاني من المسجد الأقصى... بل لن يحصلوا على هذا الطابق أيضاً لأنَّهم سوف يُعطَوْن **السيطرة** على القدس لا **السيادة** عليها!

المسألة الخامسة والأخيرة: الحدود. وهذه ستبقى مسألةً غامضة. والواضح منها هو ما يلي: سيحتفظ الإسرائيليُّون بوجودٍ عسكريٍّ ما في وادي الأردن، وسيحتفظون بالمجمّع الاستيطانيّ الممتدّ من أريحا إلى القدس (معال أدونيم). وسيَصِلون بين المجمَّعات الاستيطانيَّة والطُرق. وهم يريدون أن يحتفظوا بِكرْيات عَرَبة خارج الخليل، ليؤجِّروها بعقدٍ طويلِ الأجل. وحين تبدأ بجمعِ وطرح التدابير الأمنيَّةِ وبقيةِ الأمور سيحصلون ـ بتعبيرٍ يحبّ كلينتون أن يصف به ـ على «١٠٠ وسيلة خلّاقة لحلّ المشكلة.» سيوقِّع الفلسطينيُّون عقدَ إيجارٍ هنا، ويستأجرون أكراً هناك، ويأخذون رقعةً رمليةً في صحراء النقب هنالك مقابل أرض في الضفّة الغربيَّة. ولكنّ الخلاصة العامة هي أنّنا مازلنا إزاء خطة آلون نفسها، وإنْ كانوا سيسمُّون الطرقَ أسماءً جديدةً مختلفة. روبرت فيسك [الصحفيّ الإنكليزيّ] أجرى عملية حسابيَّة فوجد أنَّ الفلسطينيِّين سيحصلون على حوالى ٦٥٪ من الضفّة الغربيَّة، وهذه هي أساساً ما كانوا سيحصلون عليه بموجب خطة آلون. إنَّه «كسبٌ» لا معنى له. فهم محاطون بالإسرائيليِّين الذين يقرِّرون كلَّ مسائل الأمن. فالإسرائيليُّون سيسيطرون على المجال الجويّ الفلسطينيّ وعلى الحدود، وإلى ما هنالك.

وهكذا سيكون ما كسبه الفلسطينيُّون ١٠٪ من مطالبهم بخصوص المستوطنات. ولا أدري ماذا تريد أن تسمّي «مكاسبَ» القدس، ولا الـ ٦٠٪ من أرض الضفّة وهي نسبةٌ أعتبرها صفراً بالمئة لأنَّ الفلسطينيِّين في الواقع لن يملكوا السيطرة عليها. ومع ذلك كيف تَحَوَّل هذا كلُّه لدى كاتب عمود الشؤون الخارجيَّة في **نيويورك تايمز**؟ لقد كتب: «سيحصل الفلسطينيُّون على ٩٥٪ ممّا يريدونه!»

الصحفيّة الإسرائيليَّة أميرة هاس علّقتْ على النِّسَب بالقول انْ لا معنى لها. فحين تتحدَّث عن ٥٪ من الأرض عليكَ أن تضعها في السياق الصحيح. نهر الميسيسيبي مثلاً يشكِّل ٢٪ من الولايات المتحدة، ولكنَّكَ إذا نزعتَ هذه الـ ٢٪ من مساحة الأرض فستغيِّر وجهَ الولايات المتحدة بأكملها جغرافياً وتاريخياً وغيرَ ذلك. إنَّ المستوطنات في الضفّة الغربيَّة تقعُ في أخصب الأراضي الفلسطينيَّة!

سيحصل الفلسطينيُّون على ٦٠٪ من الضفّة، وهي صفر في المئة لأن لا سيطرة لهم عليها

سهلٌ جداً أن تَرْسم خريطةً لموقع المستوطنات. الإسرائيليُّون ليسوا حمقى. إنَّهم لا يفعلون شيئاً لنزوةٍ أو مصادفة. من السهل معرفةُ موقع المستوطنات: إنَّها حيث يكون الماء. فهم يبنون المستوطنات فوق الماء، وحين يقولون إنَّهم يريدون ٤٠٪ من الأرض فذلك ليس لأنَّها أرض اللَّه. لقد قاموا بحسابات شديدةِ الدقّة من أجل تحديدِ ما يحتاجون إليه لفرض سيطرتهم. وما يحتاجون إليه هو المواردُ المائيَّة، وفصلُ الفلسطينيِّين ديموغرافياً بعضِهم عن بعضٍ كي لا يندمجوا ويتَّحدوا.

اللافتُ للانتباه أنَّ «ماكينة» ياسر عرفات، أي الصحفيِّين من حوله، لا يَذْكرون أنَّ مسألة الـ ٩٥٪ من الأرض كذبة.

لقد أعطوهم [الإسرائيليُّون] خرائط. والخرائطُ واضحةٌ تماماً.

الجريمة... والعقاب

هناك أمر أجده لافتاً. فقد ذكرتَ في كتابك أنَّه خلال الاستعمار البلجيكيّ للكونغو بين عامَيْ ١٨٩١ و١٩١١ قُتِلَ ما بين ١٠ إلى ١٥ مليون كونغوليّ، وذكرتَ أنَّ أحداً في الولايات المتحدة لا يَعْرف هذا باستثناء الباحثين الأكاديميِّين. وحين تتأمَّل القوتَيْن الاستعماريَّتَيْن البريطانيَّة والفرنسيَّة تكتشف أنَّهما قَتَلَتا ما قَتَلَتْه أيُّ أمَّةٍ أخرى. أَشْعر أنَّ هتلر قد أُفرِد [من بين سائر المجرمين] لسببٍ أو لآخر. ولا أعتقد أنَّ تشرشل أفضلُ من هتلر، من حيث الجرائم التي اقترفها. فما رأيك في هذا؟

أولاً هناك مسألة كيف يُجري المرءُ الحسابات: هل يَحْسب عددَ الأشخاص الذين قُتلوا بالرصاص وبالسلاح عامةً، أم يَحْسب مَنْ مات **بالسياسات** التي سَبَّبَتْ موتاً ومآسيَ رهيبة؟ إنَّ هذه الحسابات خياراتٌ إيديولوجيَّة يتَّخذها المرء. فحين نَبْحث في ما فعله الخمير الحمر في كمبوديا لا نَحْسب عددَ القتلى فقط، بل نَحْسب أولئك الذين ماتوا بسبب السياسات الاقتصاديَّة التي اتَّبعها الخميرُ الحمر. أو حين نَحْسب وحشيةَ ماوتسي تونغ نقوم بعدّ الملايين الذين قَضَوْا أثناء المجاعة التي أعقبت «القفزةَ العظيمةَ إلى الأمام» بين عامَيْ ١٩٥٨ و ١٩٦١؛ إذ يبدو أنَّ عشرات الملايين ماتوا، ونحن نُدْرجهم ضمن ضحايا ماو لأنَّ سياساته

الاقتصاديَّة هي المَلُومة في ذلك. ومع ذلك فإنَّ الملايين الذين يموتون كلَّ عام في الهند بسبب ما يُسمَّى «رأسماليَّة السوق الحرّ» لا يُعَدُّون من ضحايا الدولة الهنديَّة أو الصندوق المالي الدوليّ أو البنك الدوليّ التي تَفْرض هذه السياسات. أعداؤ «نا» وحدهم هم الذين يُحمَّلون مسؤوليَّةَ الموتى نتيجةً للسياسات الاقتصاديَّة! وإذا استخدمتَ المعيارَ نفسَه فإنّ عدد الأشخاص الذين قَضَوا نتيجةً لسياسات الولايات المتحدة لا يُحصى. إذا نظرتَ إلى متوسّط العمر المتوقَّع في روسيا ستجد أنَّه انحدر من ٧٠ سنة وما فوق ذلك بقليل إلى ٥٨ سنة؛ لقد شُطِبَ ١٢ عاماً بسبب فَرْض رأسمالية السوق الحرّة على روسيا، ومن طرف الولايات المتحدة بالدرجة الأولى. أَوَيحمِّل أحدُ الولاياتِ المتحدةَ مسؤوليةَ هؤلاء الناس الذين ماتوا قبل أوانهم؟!

إنَّ النقطة **الأولى** التي أركّز عليها هنا هي أنَّ هناك معاييرَ مختلفةً تُستخدَم لحساب المَلُوميَّة الأخلاقيَّة: معاييرَ لأعدائـ «نا»، وأخرى لنا. في حال هتلر ثمّة نقطة **ثانية**، وهي أنَّ الإبادة تمّت ضدّ شعبٍ أوروبيّ؛ ولهذا رنينٌ أخلاقيٌّ مختلفٌ لدى الغربيِّين: فأنتَ، ببساطة، لا تستطيع أن تقارنَ حياةَ شخصٍ من العالم الثالث بحياة أوروبيّ. وفي حال اليهود كان هناك عنصر إيديولوجيّ زائد؛ وذلك أنَّ ما جَعَلَ الجريمةَ في تلك الشناعة هو أنَّها اقتُرفتْ في حقّ شعب «متحضِّر.» وهناك أيضاً الفائدة الإيديولوجيَّة من تسمية هتلر تجسيداً للشرّ كلِّه، وهي أنَّك إذا حاربتَ هتلر فستكون في صفّ الملائكة. من المهمّ أن نتذكَّر أنَّ تشرشل، إلى عام ١٩٣٨، كان مايزال يَمْدح هتلر (وهذا موثَّقٌ)، ولم يصبح هتلر شريراً إلاَّ حين بدأ يهدِّد الإمبراطوريةَ البريطانيَّة.

أتعتقد أنَّ تشرشل والإمبراطوريَّة البريطانيَّة كانا مسؤولَيْن عن قتل عدد مماثل من الناس؟

من المستحيل أن نُجري تلك العمليات الحسابيَّة. لقد صدر كتابٌ منذ فترة قصيرة لمايك دايڤيس، عنوانه: **الهولوكوستات في الزمن الڤيكتوري المتأخِّر**، ويصف الكوارث الطبيعيَّة المختلفة التي ضربت الهندَ وإفريقيا وأميركا الجنوبيَّة، فيسمِّيها «ظاهرةَ النينو» El Niño Phenomenon. وتغطِّي هذه الظاهرةُ الدوريَّةُ مساحةً واسعةً. وتحدَّث المؤلِّف عمَّا جرى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فتلك الحوادثُ الطبيعيَّة التي مات فيها الملايينُ كان سببها أنَّ البريطانيِّين شاءوا ألاَّ يخفِّفُوا المجاعةَ، وشاءوا ألاَّ يقدِّموا الإغاثةَ للمحتاجين. لقد آثروا أن يَسْتخدموا المجاعةَ، حين كانت الدولُ ضعيفة، من أجل احتلال المزيد من الأراضي. فهل نحمِّل البريطانيِّين المسؤوليَّة عن حالات الموت المختلفة التي حدثَتْ نتيجةً للمجاعة حين قرَّروا ألاَّ يقدِّموا أيَّ إغاثة بل أن يتركوا الناسَ يموتون؟ لقد كانت تلك مجاعاتٍ راعبةً، وإنْ قرأتَ كتاب دايڤيس فسيُظهر لك أنَّ الأهل كانوا يأكلون أولادهم! لقد اختار البريطانيُّون ألاَّ يفعلوا شيئاً، رغم أنَّهم كانوا يحوزون مواردَ هائلةً تمكِّنهم من أن يفعلوا شيئاً. أَعليْهم أن يتحمَّلوا مسؤوليةَ أولئك الموتى؟ إذن، ماذا ترنا نقول عن أنفسنا [نحن الأميركيِّين] ذوي الموارد الهائلة، حين يموت ـ بحسب تقريرٍ لمنظمة اليونيسف ـ حوالى ٣٠ مليون طفل كلَّ عام بسبب السياسات الاقتصاديَّة التي فرضها البنكُ الدوليّ الذي تهيمن عليه الولاياتُ المتحدة، وفرضها الصندوقُ الماليُّ الدوليُّ الذي تهيمن عليه الولاياتُ المتحدة أيضاً؟ أو خذْ حالة نيكاراغوا التي قطعتْ خطوات واسعة في التخفيف من معدَّلات موت الأطفال ومن الجوع وإلى ما هنالك؛ ولكنَّ الولايات المتحدة فرضتْ سياسات أدَّت فيما بعد إلى إعادة معدَّلات موت الأطفال القديمة، أي المعدّلات التي كانت سائدةً قبل قدوم الجبهة الساندينيَّة إلى الحكم. والأمر نفسه حدث في هاييتي. فمن المسؤول؟ إنَّك حين تبدأ باستخدام هذا النوع من المعايير تجد أنَّ هتلر ليس بِدْعاً، ولا قيمة له [بالمقارنة مع المجرمين الآخرين]!

سمعتُ باحثين يصفون هتلر بـ «المجنون.» أتعتقد أنَّه كان كذلك حقاً؟

أولاً، ليس هناك مَنْ يماري في أنَّه لم يكن إنساناً سوياً. في نهاية الحرب لم يكن سويّاً حين علم أنَّه بدأ يَخْسر هذه الحرب، فتصرَّف بطريقةٍ يتّبعها كثيرٌ من القادة حين يُوشِكُون على الخسارة. في رأيي أنَّ السؤال قد طُرِح بشكل خاطئ، وذلك لسببين. **أولاً** لأنَّه يوحي بأنَّ الظاهرة النازيَّة كانت نوعاً من الانحراف النفسيّ، أو الزيْغ عن الأعراف، أو المرض السياسيّ؛ وهذا ليس صحيحاً في اعتقادي. و**ثانياً** لأنَّه يوحي بأنَّ الأشخاص العاقلين يتصرَّفون بطريقةٍ أكثر إنسانيَّة، ولا أظنّ أنَّ هذا صحيحٌ جداً هو الآخر: فالتاريخ مليء بالسفّاحين العاقلين جداً والصارمي الإدارة. إنَّ الأمر لا يتطلّب عقلاً مجنوناً لكَيْ تحصل جريمةٌ جماعيَّةٌ على مستوى واسع. فالأشخاص الذين يتمتَّعون بالصحّة العقليَّة الكاملة أكثرُ قدرةً على ارتكاب جرائم واسعة!

أيَخْدم وصفُ هتلر بـ «المجنون» أيَّ هدف إيديولوجيّ؟

نعم. أعتقد أنَّ ثمة هدفاً إيديولوجيّاً لذلك. إنَّ جعل هتلر تجسيداً للشرّ في تاريخ العالم سيَخلق مشكلةً حقيقيَّةً لأنَّ ألمانيا ـ في النهاية ـ موجودةٌ في قلب أوروبا، ويُفْترض أن تكون أوروبا تجسيداً لكلِّ ما هو متحضِّر وثقافيّ ومرهَف في التاريخ الإنسانيّ، بل يُفترض أن تكون ذروةَ ذلك كلِّه. المشكلة هي كيف توفِّق بين الأمرَيْن: ففي قلب الحضارة الغربيَّة، في قلب الحضارة اليهوديَّة ـ المسيحيَّة، في قلب الثقافة الأوروبيَّة التي هي «الثقافةُ كلُّها،» يَبْزغ تجسيدٌ للشرّ شيطانيٌّ إبليسيٌّ. إنَّ هذا يلطِّخ اسمَ أوروبا والحضارة الأوروبيَّة. والوسيلة لحلّ هذه المعضلة إيديولوجياً تكون بتحويل الظاهرة النازية إلى انحرافٍ أو التواءٍ أو زيْغٍ مَرَضيّ مصدرُه رجلٌ واحد في الأساس. أحياناً يقولون إنَّ تلك الظاهرة تَنْبع من الألمان أو من ألمانيا، محاولين أن يَفْصلوا بطريقةٍ ما الظاهرةَ النازيةَ عن الحضارة الغربيَّة. وهذه هي «الخدعة» الإيديولوجيَّة الرئيسة ـ إنْ كان لي أن أستخدم كلمة «خدعة» ـ التي يستخدمونها لأنَّهم لا يريدون أن يَرَوْا إلى أيِّ حدٍّ نَمَتِ النازيةُ من قلبِ سماتِ ما يسمَّى «الحضارةَ الغربيَّة.»

أذْكر أنَّني قرأتُ شيئاً لتشومسكي يَذْكر فيه أنَّ الغرب عاملَ ألمانيا أثناء الحرب العالميَّة الثانية وبَعْدها بمنزلة الأخ الذي ضَلَّ الطريقَ. ولكنَّ الغرب في الوقت نفسه وَصَفَ اليابانيِّين بالحشرات التي تستحقّ أن تُسْحَقَ.

في حال اليابانيِّين، الغرب يرى أنَّهم كلَّهم أشرارٌ بشكل مطَّرد. وأمَّا في حال الألمان فقد تمّ التمييزُ على الدوام بين النازيِّين والألمان الأخيار!

أعتقد أنّ هناك فرقاً كبيراً جداً بين أن يكره الإسرائيليُّون العرب، وأن يكره العرب الإسرائيليِّين

معاداة الساميَّة

مصطلح «معاداة الساميَّة،» ألَهُ تعريف محدَّد؟

لا أعتقد أنَّ بمقدورك أن تأتي بتعريف محدَّد لأيٍّ من هذه المصطلحات. ومن العدل أن أقول: إنَّني لا أعرف. لا أريد أن أجيب عن هذا السؤال لأنَّه ليس سؤالاً بسيطاً. والسؤال يغدو أكثر تعقيداً حين تَكْره شخصاً أو مجموعةً من الأشخاص بسبب تجربة سلبيَّة مطَّردة: أيُعرَّف هذا بالتعصُّب الأعمى bigotry، أم بالعنصريَّة، أم بمعاداة الساميَّة؟ لنَقُلْ إنَّ أهلي يكرهون الألمان، كلَّ الألمان، وإنَّ البيض في جنوبيّ البلاد كرهوا كلَّ السود. أفيكون الطرفان [أهلي والبيض] متعصِّبين بالطريقة نفسها؟ أتقول إنَّ الطرفين عنصريان بالطريقة نفسها؟ أن تَكْره مجموعةً بوصفها مجموعةً لا يجعلك في حدِّ ذاته عنصرياً. أعتقد أنَّ هناك فرقاً كبيراً جداً بين أن يَكْره الإسرائيليُّون العرب، وأن يكره العربُ الإسرائيليِّين. لا أظنّ أنَّ في وسعك أن تقول إنَّ الطرفَيْن متماثلان. فأن تقول إنَّ الطرفيْن يمارسان فعلَ الكراهية يضيِّع النقطةَ الأساسيَّة أو نقاطاً أساسيَّة عدة.

أعتقد أنَّه سؤال بالغُ التعقيد. والتعريف المعتاد السريع هو القول إنَّك تكون لاسامياً إنْ أنتَ كرهتَ أيَّ مجموعة من الناس بوصفها مجموعةً. حسناً! ولكنِّي التقيتُ عدداً من الفلسطينيِّين الذين يكرهون اليهودَ مجموعةً. أأدعوهم «لاساميِّين؟» لا، لا أفعل ذلك. إذن السؤال هو ماذا يَجْعل اللاساميَّ لاسامياً؟ لا أعرف. تلك أسئلة صعبة.

هناك كثير من الناس في إسرائيل أو الولايات المتحدة يستخدمون هذا المصطلح ضدّ أيِّ كان، من دون أيِّ معيار يحدِّد دقةَ ذلك الاتِّهام.

انظرْ، في الولايات المتحدة نحن خارج نطاق الخطاب العقلانيّ! حين نتحدَّث عن هذه البلاد نتحدَّث عن مكانٍ معتوه. أَذْكر أنَّه كانت هناك مقالةٌ في جريدة **نيويورك تايمز** عن جامعة برنستون [وهي واحدةٌ من أفضل الجامعات في الولايات المتحدة] حيث ٤٠٪ من الطلاَّب اللامتخرِّجين يهود، علماً أنَّ اليهود يشكِّلون ١،٥٪ فقط من الشعب الأميركيّ. تلك المقالة تتساءل ما إذا كانت برنستون معاديةً للساميّة لأنَّ ٤٠٪ **فقط** من طلابها اللامتخرِّجين يهود! تذكَّرْ: رئيسُ الجامعة آنذاك كان هارولد شابيرو، وهو يهوديّ؛ وكلّ العمداء يهود؛ و٤٠٪ من الطلاَّب اللامتخرجين يهود. أوَتكون برنستون، بعد هذا، معاديةً للساميَّة؟!

[وضحك نورمان].

نيويورك